رواية

وليد سيف

الشاعرُ والمَلِك

غريب في قومه

(1)

وقــد أتناســى الهــمّ عنــد احتضــاره

بنــاجٍ عليــه الصــيعريّةُ مُكْــرِمِ

وقبل أن ينتقل الشاعر إلى البيت التالي، سمع القوم صوت غلام يقول ضاحكاً:

- استَنْوَق الجمل!

ذهبت أبصار الجميع إلى باب المنتدى وقد أخذتهم الدهشة. كان الغلام ذو العاشرة من عمره يقف لدى الباب. بعد لحظات قصيرة من الحيرة والتساؤل، دعاه الشاعر أن يتقدّم إليه، وسأل:

- كيف قلت؟

أجاب الغلام بلا تردد، وما تزال على وجهه ابتسامة حائرة بين البراءة والتهكم:

- استنوق الجمل!

- وكيف ذاك؟

- قلت:

وقــد أتناســى الهــمّ عنــد احتضــاره

بنــاجٍ عليــه الصــيعريّةُ، مُكْــرِم

والناجي هو الجمل. والصيعرية سمة من سمات النوق في أعناقها. فكيف تصف الجمل بها إلّا أن يستنوق، فينقلب إلى ناقة!

هنا انطلق القوم بالضحك، وعلى الرغم من حرج الموقف، وجد الشاعر نفسه يشاركهم الضحك. ثم طلب من الغلام أن يقترب منه أكثر حتى صار في وجهه، وسأل:

- من الغلام؟

هَمّ القوم أن يجيبوا متفاخرين بفتاهم، ولكنه كان أسرع:

- عمرو بن العبد البكريّ.

تأمّله الشاعر بنظرة متفحّصة دون أن تفارقه ابتسامته، وقال:

- أخرج لسانك أيها الغلام حتى آخره؟

لم يتردد الغلام في مدّ لسانه، نقر الشاعر بإصبعه على رأس الفتى، وقال:

- ويل لهذا... من هذا؟!

وأشار إلى رأسه أولاً ثم إلى لسانه.

وما كان الشاعر المعروف باسم المسيّب بن علس، والذي كان قد حلّ ضيفاً على ذلك الحيّ من بكر بن وائل بن ربيعة ليعلم في تلك الساعة أن العبارة التي أطلقها الغلام «استنوق الجمل» ستذهب مَثَلاً بين العرب، لكل ما يخرج بوصف الشيء عن طبيعته.

وما كان قوم الغلام الحاضرون وقد غمرهم الفخر بفطنة غلامهم الذي صحّح على شاعر معروف، ليعلموا في تلك الساعة أنه سوف يأتي وقت يسترجعون فيه عبارة «المسيّب»، ويل لهذا.. من هذا!

* * *

(2)

كان يجلس وسط أسرته في بيتهم الرحب المبني من الطين المُقَسّى وسعف النخيل وشحف الصخور السوداء، وهو يحيط ولده عَمْراً بذراعه ويضمّه إليه فخوراً ضاحكاً:

- «استنوق الجمل»... لتذهبَنّ مَثَلاً... ولا يتمثل به أحد حتى يذكر قائله... هذا ولدي عمرو... جمل أبيه، ولكنه لا يستنوق كجمل «المسيّب».

لم تكن زوجه وردة أقلّ منه فخراً بولدها الذي ظهرت عليه مخايل النجابة منذ بواكير عمره، فكان لا يسمع الشعر حتى يحفظه، فإن كان كثيراً وضلّ عنه بعضه ارتجل من عنده ما يتمم البيت دون أن يخلّ بمعناه ومبناه. فإذا ذكر الأصل بعد ذلك رجع عليه بالتصويب تحريّاً للصدق. ولقد كان في السادسة من عمره فقط حين خرج مع عمّه المرقّش الأصغر، وكان من فحول الشعراء، لصيد القنابر، فنصب الفخ وجلس يرقب وينتظر، حتى مالت الشمس إلى المغيب دون أن يواتيه الحظ. وقال المرقش مواسياً وهو يعدّ المطية للعودة:

- لا عليك يا ابن أخي... لعل القنابر قد اختبرت الفخ كثيراً في هذا المكان... فلم يعد يغرّها الطعم وإن كانت جائعة! فكذلك تفعل الطير وحيوان البرّ.

ولما رفع الفخ، نظر في السماء وارتجل قائلاً:

يـــا لـــك مـــن قـــبّرة بِمَعْمَـــرِ

خـــلا لـــك الجـــوّ فطـــيري واصـــفري

قـــد رُفـــع الفـــخ فـــماذا تحـــذري

ونقّـــري مـــا شـــئتِ أن تُنَقّـــري

قـــد ذهـــب الصـــيّاد عنـــكِ فأبشـــري

لا بـــدّ يومـــاً أن تُصـــادي فاصـــبري!

فما الغريب في أن يصحح على الشاعر المسيّب في منتدى القوم وعلى رؤوس الأشهاد، وهو بعد في العاشرة من عمره؟ وكيف لا يفخر به أبوه الذي لم يتوقف عن ضمّه إليه، وهو يقول متباهياً:

- وكيف لا يكون ولدي كذاك وقد ورث الشعر من عمّه، أخي المرقّش الأصغر، وعمّ أبيه المرقّش الأكبر؟

تدخلت «وردة» معاتبة:

- ما بالك قد نسيت خاله المتلمّس، وجدّه لأمّه عمرو بن قميئة، وكلاهما من علمت في الشعراء؟

هزّ العبد رأسه موافقاً، ثم استدرك قائلاً:

- سيبزّ ولدي أعمامه وأخواله معاً... وليصلنّ صيته أقصى المشرق والمغرب.

كان ما يزال يضحك ويضم ولده ويردّد عبارته «استنوق الجمل»، حين توقف فجأة ووضع يده على صدره وانقبضت ملامح

وجهه من الألم، إذ عاودته تلك الشكّة التي ما زالت تأتيه بين الفينة والأخرى، فلا يلقي لها بالاً، لأنها تذهب بالسرعة التي تأتي بها. وما كان الرجل يعاني من مرض معروف يقعده أو يستدعي أن يستطب له، وهو ما يزال بعد في ريعان الشباب لم يكد يجاوز الثلاثين من عمره.

تحفّزت ملامح وردة وإن لم يخطر لها أن في الأمر ما يستوجب الفزع، حتى رأته يميل بجسمه على ولده عمرو حتى استقر رأسه في حجره. وما هي حتى سمع الناس في الجوار صرخة وردة المروّعة!

* * *

بعد أن أهالوا عليه التراب، وقف المرقّش ينعي أخاه:

أما والله لقد كنت نِعْمَ الرجل، قريباً من المكرمات، بعيداً عن الشائنات، لا تُطفَأ لك نار ولا يُرْفَع لك سِتر... حديد البصر على العدوّ، ضعيفه على حليلة جارك. إذا جاع الناس أطعمت، وإذا أشْتَوا أدفأت، وإذا غرموا عقلت مالك وبذلت، سريعاً عند الفزع، بطيئاً عند الطمع...

وإذ فرغ من النعي، أخذ حفنة من الرمل وأهالها على القبر قائلاً على مجرى العادة في دفن الميت:

- لا تَبْعَد.

وحين أدبر القوم عن موقع القبر، لم يتنبهوا إلى أن الغلام عَمْراً قد تخلّف عنهم جالساً عند قبر أبيه يتأمّل فيه، حتى تفطن له خاله المتلمّس فرجع إليه وجذبه من أطراف ثوبه وردّه معه، بعد أن قاوم

قليلاً. وبينما أخذا يبتعدان، لبث عمرو يتلفت إلى القبر بين الفينة والأخرى. ولكنه لم يكن يبكي.

بكته زوجه وردة بكاءً مرّاً. فقد كانت مُحِبة له أشدّ الحب. وفي مجلس عزاء النساء، نعته قائمة ليعلم الناس أنها لن تتزوج بعده أبداً. ورددت عليه:

... فوالله، ما رأيت منك خلّة تكرهها الحليلة. لقد كنت حَسَن الرائحة، طيّب النَّفَس، خفيفَ المضجع... قليل الكلام إلّا من مقالة خير، كثير الفعال إلّا من فعلة شرّ. لا تستأثر دون الحليلة بالدّثار، ولا يُظلم عندك جار، ولا أسمعتني كلمة جافية، ولا استقبلتني بوجه عابس... ألا ربّ ليلةٍ نام فيها الناس وأنت سارٍ إلى الأيتام... يا أبا معبد... يا جملي وعماد بيتي...

وبكاه ابنه الأكبر معبد الذي كان في الثانية عشرة من عمره، وكذلك ابنته الخرنق التي كانت في الثامنة... شخص واحد من أهله لم يبكه أبداً: عمرو الذي مات في حجره! إذ بقي صامتاً ساكناً وقد بدا أنه غائب عما حوله، ومضى على ذلك أيام الحداد كلها.

«لا تَبْعَد»! هكذا قال عمه المرقّش الأصغر وهو يحثو قبضة من التراب على قبره بعد أن فرغ القوم من دفنه وإهالة التراب عليه، وأثنى عليه الناعي بما يستحقه! وأي بُعد أعظم من ذلك البُعد الذي لا رجعة منه؟ كان يضحك... ولم يكن قد بلغ من العمر ما يُؤْذِن بقرب الرحيل، ولا كان يكابد مرضاً أعيا الأطباء، ولا أصابته شكّة من رمح أو ضربة من سيف... كان يسعى في كل يوم في نخله وإبله مع إخوته... وفي حاجات أهله وحاجات قومه. وقبل بضعة أيام

فقط ألحّ عليه عمرو أن يأذن له في زرع نخلة جديدة تكون خاصّته وتكبر معه، ويتعهدها بنفسه حتى تثمر. ولكي تنماز عن غيرها آثر أن تكون متنحية عن باقي النخيل في بستان بعيد عن منازل القوم، وعن سائر البساتين التي يملكها والده العبد وإخوته. احتار أبوه في مطلبه ذاك، ولكنه لم يعترض، وأعانه على زراعة تلك النخلة، حتى إذا فرغا أخذ عمرو يتأملها سعيداً مبتسماً، ثم قال:

- إذا أثمرت، فلا يُمْنع منها أحد.

ثم التفت إلى أبيه وتابع:

- أليست لي؟ فأنا حرّ في بذل ثمرها.

هزّ أبوه رأسه مبتسماً، ثم ربّت على ظهره محبّةً وإعجاباً.

كان ذلك قبل بضعة أيام فقط، والآن يرقد أبوه في قبره. كان يضحك، وفي لحظة واحدة انتهى كل شيء، دون أن تقدّم لذلك نُذُر المرض أو الشيخوخة! ولم يتمثّل الموت في صورة عدو ولا سيف ولا رمح ولا سهم فيمكن اتقاؤه؟ فلماذا وكيف؟ ولماذا أبوه دون غيره؟ ومن يقضي بذلك؟

كان يجلس على ركبتيه أمام قبر أبيه، كما اعتاد أن يفعل في كل يوم منذ وفاته التي فات عليها زهاء عشرين يوماً، حتى اشتد قلق أمّه عليه. وكان مستغرقاً في التأمّل والتفكير حين سمع صوت خاله المتلمّس من خلفه:

- أعلم ما في نفسك يا ابن أخت. كنت تعرف أن الموت يصيب الناس جميعاً، ولكن لم يخطر لك أبداً أنه سيخطف أباك في

ذلك العمر أمام عينيك... ربما لو مات بسبب ظاهر لما طالت حيرتك فيما أرى.

مرت هنيهة صمت دون أن يلتفت عمرو إلى خاله، حتى قال أخيراً بصوت خافت ضعيف:

- لم أرَ شيئاً يدخل من الباب أو كوّة البيت؟

- الموت ليس شيئاً تراه.

- ولكني أرى ما يفعل... فلِمَ نرى الأثر ولا نرى صاحبه؟

- لا أدري يا ابن أخت.. ما زال الناس حائرين في أمر الموت ولا يجدون جواباً، إلّا أنه اليقين الوحيد، وإن كنا لا نعلم متى يأتينا وبأي سبب. فلماذا نشغل أنفسنا بما نجهل عمّا نعلم؟

- وما الذي نعلم؟

- أننا بعد أحياء، وأن للحياة تكاليفها ولذاتها معاً، وأن علينا أن نعيشها ونعتصرها قبل الفوات. وبذلك يصير الموت سبباً في الجري والنشاط في مواطن العزيمة ومواطن اللذة... وإذا كان الإنسان يفنى حتى يصير تراباً، فليجتهد في أن يبقى بعد ذلك في أثره وذكره.. وفي ولده... وأنت يا ابن أخت، أنت ميراث أبيك، فاحفظ نفسك لتحفظه... هل تعي قولي؟ هيا... قم يا ابن أخت معي، ولا تتلبث قائماً على قبر أبيك... فإنه ليس هنا في هذا القبر، إنما هو فيك وفي أخيك... فعش لنفسك وله:

قبل أن ينصرف مع خاله، ويودّع قبر أبيه الذي لن يراه بعد الآن، والذي يعلم أن الريح والأيام ستمحو أثره بعد حين على كل

حال، أرسل بصره إلى البعيد حيث يقوم جبل صخري أسود، ووقف لحظات يمعن فيه النظر، أدرك خاله ما يدور في خلده، فقال:

- هذا جبل ما يزال يمرّ به الناس منذ أول الدهر، وهو على حاله. ولعل بعضنا ينظر إليه فيقول: ليتني أخلد مثله!

ولكنه ليس بالحيّ ولا بالميت... ولا بالشقيّ ولا بالسعيد... وإذن، فالموت قرين الحياة! لا يكون أحدهما بغير الآخر. فمن أحب الحياة لزمه ألّا يخشى الموت وألّا ينشغل بتوقّيه عن مطالب الحياة، فيكون كالميت الحيّ!

سوف تبقى هذه المعاني مزروعة في ذهنه على مرّ الأيام والسنين. ولسوف تصحبه فكرة الموت أنّى حلّ أو ارتحل، ولسوف يدعوه ذلك إلى الإقبال على الحياة بلذاتها ومخاطرها، إقبال من يظن أنه ليس بعد اليوم غد، فكأنه يختلسها من الموت المتربّص اختلاساً!

* * *

(3)

ثلاثة أشهر مرّت على موت العبد، دون أن يقسم إخوته لأسرته نصيبهم من حق أخيهم في المال والنخل والإبل. فقد كان العبد وإخوته قد أبقوا إرث أبيهم مجموعاً، فيأكلون من خيره معاً. فلما طال هذا الأمر، وبدأت الهواجس تخامر وردة، وأرقها الخوف على أبنائها من الفاقة، اضطر أخوها المتلمس إلى مراجعة الأعمام الثلاثة: أبي الربيع، وأبي حارثة، والمرقّش الأصغر. فردّوه ردّاً قبيحاً. وكان أغلَظهم أبو الربيع الذي زعم أنهم إنما يحبسون مال أخيهم المتوفى حتى يبلغ أبناؤه سن الرشد، فإنهم الآن لا يستطيعون التصرّف به، على أنهم لن يتركوا أبناء أخيهم في فاقة، فسيكفونهم حاجتهم. فلمّا ألحّ المتلمّس عليهم، أغلظ عليه أبو الربيع، واتهمه بأنه يريد أن يتولَى المال لنفسه. فإن لم يكن الأعمام هم أولياء المال، وكان أبناء أخيهم قُصّراً، فلا معدى من أن يتولّاه الخال! ثم ذكّره بأن أولياء الدم هم أولياء المال. على هذا جرت العرب.

سُقط في يد المتلمّس، ولم يجد إلّا أن يقول:

- إن هذا أمر سيورث كرهاً.

اكتسى وجه أبي الربيع بملامح الهزء، وخرج المتلمّس وهو يردّد:

- الظلم مرتعه وخيم.

وحين غاب خارج الباب، أرسل أبو الربيع ضحكة هازئة، تابعه عليها أخوه أبو حارثة. أما المرقش فأرسل إلى أخويه نظرة عاتبة تنم عن عدم الرضا. فقد كان أرقّهم فؤاداً. وقد حاول من قبل أن يثنيهما عن ذلك الرأي، ثم اضطر إلى مجاراتهما على مضض.

* * *

لم يعد ثمّة مجال للشك بعد الآن أن الأعمام يريدون أن يحوزوا مال أخيهم دون زوجه وأبنائه. عصرت وردة رأسها بين يديها حين رجع إليها أخوها المتلمّس بالخبر، ثم سألت:

- هل أرفع شكاتي إلى أشياخ بكر؟

هزّ المتلمس رأسه يميناً وشمالاً، وقال:

- فيمن تختصمين، ولمن؟ مهما يكن غرضهم، فإنهم يدفعون برأي لا يُرَد. العم أولى بولد أخيه حتى يرشدوا، فكأنك تخاصمين يمين أولادك بشمالهم.

قالت:

- بل أنا أولى بأولادي وقد حملتهم وأرضعتهم وسهرت الليل عليهم.

قال:

- ليس هذا ما عليه القوم. فكأني إذا انصرفت عن القوم يقولون: بئس المرأة توقع بين أبنائها ورهط أبيهم وتسعى في قطع أرحامهم، فيتشاءم القوم بك.

- فمن للضعيف العاجز؟

أجاب بنبرة حائرة:

- الأصل أن ينصره قومه. ولكن، ما الحيلة إذا كان رهطه هم الذين ظلموه؟... ولذلك كان ظلم القريب أشد وأنكى يا أختاه.

أطرقت لحظة، ثم رفعت رأسها:

- إذن أرفع شكاتي إلى عامل ملك الحيرة علينا، ألسنا في ملكه؟

هز المتلمس رأسه من جديد متشككاً وقال:

- قد علمت يا أختاه أنّ عامل عمرو بن هند على هَجَر والبحرين من بني عبد القيس، وهم وإن كانوا وبكر وتغلب يرجعون إلى وائل بن ربيعة، فقد فرقت بينهم الأيام والخصومات. ووالله ما ولّاه ابن هند على هَجَر إلّا نكاية ببكر. فإن أنت ذهبت إليه فلتقولنّ بكر: زوج العبد بن سفيان البكريّ تستعدي أخا عبد القيس على قومها. ثم إنه لا يعبأ إلّا بجمع المكوس والخراج لسيّده ملك الحيرة، فلا رجاء منه.

أطرقت من جديد وهمست بحيرة ويأس:

- فماذا يصنع المظلوم؟ لو كان ولداي كبيرين، لكان لي بهما قوة.

ربّت على كتفها مواسياً وقال:

- لا عليك يا أخيَّة، أضمّ أبناءَك إلى أبنائي.

كان عمرو ينصت إلى الكلام بين أمّه وخاله صامتاً متفكراً. وحين فرغا، انسلّ خارجاً بهدوء.

كان السوق يعج بالناس، وكان أبو الربيع وأبو حارثة منشغلين بالإشراف على بيعهما من التمر، حين سمعا صوت ابن أخيهما عمرو يصيح بهما:

- أبا الربيع... أبا حارثة!

التفتا إليه حيث كان يقف على بُعد خطوات منهما، وصاح أبو الربيع:

- ابن أخي؟ ما جاءَ بكَ الساعة؟

أجاب عمرو بصوت تعمّد أن يسمعه أهله السوق من حوله:

- أجل... ابن أخيكم الذي عدوتم على إرث أبيه.

تنبه الناس في المكان، وذهبوا بأبصارهم إلى الغلام ذي العاشرة وعمّيه... واعترى العمّين الحرج، وبادر أبو الربيع إلى القول منتهراً الغلام:

- أهكذا يخاطب الولد عمّه يا غلام؟

أجاب عمرو بنبرة ثابتة:

- حين يكون أول من ظلمه، وذاك قبل أن يطمئن بدن العبد في قبره.

تصاعد غضب أبي الربيع، بينما انصرف آخرون عن بيعهم ليشهدوا الموقف، وصاح أبو الربيع:

- صهٍ يا غلام. أما والله لم يحسن أبوك تأديبك. وقد غدونا أولى الناس بذلك...

ثم تلفت في الناس الذين تحلّقوا حولهم، واستأنف:

- هذا الغلام الغرّ لا يدري ما يقول. لعلّ صدمة الموت قد ذهبت بعقله.

تحرّك عمرو في فسْحة المكان، ورفع ذراعيه يخاطب الجمع:

- أيها الناس... أنصتوا إلى قولي فيمن أراد أن يُضَيّعني وأمي وأخي وأختي، ثم احكموا فِيَّ وفيه...

وأنشد:

مـــا تنظـــرون بحـــقٍّ وردةَ فـــيكمُ
صَـــغُر البنـــون، ورهـــطُ وردةَ غُيَّـــبُ

قـــد يبعـــثُ الأمـــرَ العظـــيمَ صـــغيرُه
حتـــى تظـــلّ لـــه الـــدماءُ تَصَـــبَّبُ

والظلـــم فـــرّقَ بـــين حَيَّـــيْ وائـــلٍ
بكـــر تســـاقيها المنايـــا تَغْلـــبُ

قـــد يـــوردُ الظلـــمُ المُبَـــيَّنُ آجِنـــاً
مِلحـــاً يُخـــالَطُ بالزّعـــاف ويُقْشَـــبُ

والإثـــم داءٌ لـــيس يُرجـــى بُـــرْؤُه
والـــبِرّ بُـــرءٌ لـــيس فيـــهِ معطَـــبُ

والصـــدق يألفـــه الكـــريم المُرْتَجـــى
والكِـــذْبُ يألفـــه الـــدنيءُ الأخْيَـــبُ

أدّوا الحقـــوق تَقِـــرْ لكـــم أعراضُـــكم

إنّ الكـــــريمَ إذا يُجَـــــرّبُ يغضـــــبُ

* * *

في بيت أبي الربيع، أخذ هذا يضرب كفاً بكف وهو يتميز غيظاً بحضور أخويه أبي حارثة والمرقّش:

- فَضَحنا الغلام وصفّر وجوهنا بين القوم... وما انفض الناس حتى رأيت الكراهية والازدراء في وجوههم... وما يلبث هذا الشعر الذي سَلَقَنا به حتى يسير في كل حيّ من أحياء العرب... وما يزيده ذيوعاً أنه لغلام حَدَث... ومن أين لغلام مثله أن يأتي بمثل ذلك الشعر إلّا أن يكون شيطانه فحلاً عتيداً؟

فوجئ أبو الربيع وأبو حارثة بأخيهما المرقّش يطلق ضحكة غريبة، فصاح به أبو الربيع معاتباً:

- وتضحك على ما نحن فيه؟ لم يستثنِ أحداً منا.

- قد صرَفتْني قوة شعره عما يعيبنا منه، ولولا ما أصابنا منه لكنت أشدّ الناس فخراً به، وهو ابن أخينا! أما رأيتم كيف زيّنه بالحكمة كي يتمثّل به الناس جميعاً في حوادث أيامهم، وما يفعلون حتى يذكروا مناسبة القول فتكون علينا سبّةً أبد الدهر. أما والله قد نصحتكما قبل ذلك أن نَقْسم لهم، فلم تسمعا نصحي.

تدخّل أبو حارثة متبرّماً:

- دعنا من هذا الآن... ما عسانا نفعل قبل أن يثلم أعراضنا من جديد بحديدة لسانه؟

أجاب المرقّش دون تردد:

- اقطعوا لسانه بترك ما أطلقه عليكم.

* * *

بينما كان المتلمس يواصل الضحك متشفيّا بأبي الربيع وأخويه، ومتفاخراً بابن أخته الذي قدر بشعره على ما لم يقدر عليه، كانت «وردة» تضمّ ولدها بمحبة واعتزاز:

- لولا ولدي هذا لما ردّوا علينا حقنا.

قال المتلمّس:

- بل قولي بعضه، فقد كان خروج روح أبي الربيع أهون عليه من ردّ المال كلّه... ولكن بعضه خير من عدمه، وهو كثير على كل حال.

قالت وردة وهي تعاود ضمّ ولدها وتمسح على شعره:

- الآن علمت أن لي رهطاً وقوّة في لسان ولدي هذا.

اقترب المتلمس منه، ونزل مقرفصاً ينظر في عينيه وقال:

- ولكنها كقوّة النار يا ابن أخت.. تضيء أو تحرق.. فإمّا لنا وإمّا علينا.. فانظر كيف تستعملها.

* * *

(4)

كعادته في كل مساء أخذ يتطيب بالدهن والعطر وينظر في المرآة حين أحسّ حركة دخول أمه عليه، فالتفت إليها. وإذ رأى نظرة العتاب المألوفة في عينيها، ابتسم وقال مداعباً:

- هؤلاء الغواني... يعجبن من الرجل مثل الذي يعجبه منهنّ!

قالت:

- أما تستحي من أمك أيها الفتى؟

اتسعت ابتسامته وقال:

- لا أفعل ما يُسْتَحى به فأكتمه، ولو كان ذلك لكان أحرى بي أن أتركه. ولم أقل شيئاً لا تعلمه أمي من ولدها.

- ويعلمه الناس.

- ويعلمه الناس. فليكن. وأي بأس؟ فما بال هؤلاء الشعراء يتغزلون ويشبّبون ويروي عنهم الرواة؟

قالت:

- إلّا أن أولئك الغواني اللواتي تذكرهنّ، يعجبهنّ من الرجل إتلاف ماله، وإن صار شَعْرُه كرماد الموقد، أكثر مما يعجبهن الطيب الذي يتطيّب به.

- هذا وذاك... هذا وذاك يا أمّاه... وكلٌّ يطلب حاجته من الآخر، فيبذل هذا لذاك ما يبلّغه حاجته عنده! على ذلك يتبايع الناس، فيفوز جميعهم!

كانت تعلم أن جوابه حاضر دائماً، وأنه لا قِبَل لها بجداله. وحين مشى في طريق الخروج كاد أن يصطدم بأخيه معبد داخلاً، وآثر ألّا ينظر في وجهه العابس.

أرسل معبد نظرة لوم إلى أمّه، فأشاحت عنه وابتدرت القول قبل أن يشرع به:

- أقْصِر اللوم يا معبد.

قال متبرماً:

- إنه أخي يا أمّاه، وقد علم الله أني أحبه حباً جمّاً. ولكنْ، هذا الذي يقيم عليه من اللهو والشراب والقيان وأصحاب السوء وحانوت الخمّار... يتلف ماله فيها، وينفق إنفاق من لا يخشى الفقر!

- ولماذا يخشى الفقر؟

- المال ينفد يا أماه وإن كثر، كما تنفد أيام العمر. فماذا عساه يفعل عندئذٍ؟ يعمل بيده عند الناس؟

قالت مستنكرةً:

- ما كان أخوك ليمتهن نفسه بعمل يده.

- إذن فليُقِم على ماله معي حتى يربو ويزيد، بدلاً من إتلافه، كأن يده غربال.

ردّت بنبرة صارمة:

- بل قل: كأن يده البسيط المُرْبع.

هز رأسه يائساً ومضى عنها، وقبل أن يدخل الغرفة التي يقتسمها مع أخيه، سمع صوت أمه تستوقفه. فلما التفت إليها، وجد ملامح وجهها قد تغيّرت إلى العطف والحنوّ. اقتربت منه واحتضنته. فقد كانت تعلم أنه قال حقاً وإن أنكرت عليه لومه، ضناً بولدها الآخر: طَرَفة.

نعم، «طَرَفة»... هذا هو الاسم الذي لحقه واشتهر به منذ شبّ عن الطوق وعُرِف بشِعْره ولهوه وتفرّده برأيه وأفعاله عن مألوف الناس. وما هي حتى بدا أن الناس نسوا اسمه الأول الذي سمّاه به أبوه: عمرو. فإن ذكره بعضهم وناداه به تعمّد ألا يلتفت إليه، حتى يتحوّل إلى الاسم الجديد. فقد كان هو من اختاره لنفسه وأذاعه. أما اسم «عمرو» فلم يكن له فيه إرادة ولا خيار. وهو كثير بين العرب.

أما «طَرَفة» فاسم طارف جديد لم يَعرف أحداً قد سمّي به، فهو منفرد به.

وكان معبد على الضد من أخيه في طباعه، يغلب عليه الجدّ في كل أمر، فينهض من أول الفجر إلى نخله وإبله، ويقوم على حاجة أمه وأخته. ولطالما نهى أخاه عما هو فيه من اللهو والعبث وإتلاف المال، فلا يجد منه أذناً صاغية، ولربما ردّد على سمعه أبياتاً من شعر عديّ بن زيد:

أعـــاذِلُ مـــا يـــدريكِ أن منيّتـــي

إلى ســـاعةٍ في اليـــوم أو في ضـــحى الغَـــدِ

أعــاذِلُ مــن يُكتَــبْ لــه المــوتُ يلقَــه

كفاحــاً، ومــن يُكتَــبْ لــه الفــوزُ يَسْــعَدِ

أعــاذلُ إن الجهــل مــن لــذة الفتــى

وإنّ المنايــــا للرجــــالِ بمرصَــــدِ

فــذرني فــما لي غــير مــا أمــضِ إن مــضى

أمــامِيَ مــن مــالي إذا خَــفَّ عُــوَّدي

وللــوارث البــاقي مــن المــال فــاتركي

عتــابي فــإني مصــلحٌ غــير مفســد

وكان قد ألقى هذه الأبيات لقينة الخمار لتغنيها في سَمَره مع أصحابه الذين ما فتئ ينفق عليهم. ولقد يعجب بعضهم من ذكر الموت في ساعة الأنس، ثم يحدّث أحدهم نفسه: «لا بأس إذا كان ذكر الموت يدعوه إلى استباقه بإنفاق ماله على نفسه وصحبته في المتع واللذات!».

وإذ عاد من آخر تلك الليلة إلى بيته ليصيب حظه من نوم النهار، وجد معبداً يتأهب للخروج في عمله، فلما همّ أن يعذله على مجرى عادته، أسرع طرفة إلى إسكاته، فقال:

- ألا تيأس من اللوم يا أخي؟ قد علمتَ أن مذاهبنا شتى... ما لي وما تعد من أمر المال! وهل يَعُدّ الدهر حتى نعُدّ؟

أجاب معبد:

- صاحب الحانوت يعدّ، وقينته...

- ولذلك كانا صاحب حانوت وقينة! لا أكثر... وأنا من أنا.

ارتمى بجسمه على الفراش وقال:

- أنت أحوج إلى النصح يا أخي... فإنما يفوتك من عمرك ما نمتَ عنه.

وقف معبد عند فراش أخيه، وقال بهدوء:

- صدقت.

انقلب طرفة بجسمه على ظهره ينظر إلى أخيه، وقال:

- عدلتَ إلى مذهبي إذن؟

- إلّا أنني أنام الليل، وأصحو إلى تكاليف النهار، وأنت تصحو الليل...

قاطعه طرفة:

- وتكاليف القلب يا معبد! تكاليف القلب. هي خير أم تكاليف الإبل والشياه؟!

ثم تحوّل بمضجعه عن أخيه الذي هزّ رأسه يائساً ثم مضى في حال سبيله.

* * *

(5)

ولكن يوم معبد ذاك لم يكن يوماً سعيداً.

فبينما كان ينظر في نخله ويوجه أوامره إلى أجرائه، سمع وقع حوافر خيل تقترب، ولدهشته رأى على رأس الكوكبة «حشّار» ملك الحيرة عمرو بن هند الذي يجمع له الخراج والمكوس من أصحاب الأرض والنخل والأنعام والتجار. فما شأنه الآن وقد أدّوا ما فُرِض عليهم ذلك الموسم دون نقصان؟ ولم تطل حيرته حتى ابتدره الحشار بالقول: «إن الملك قد استقلّ المال، فقضى بزيادته على أهل هَجَر».

انقبض معبد انقباضاً شديداً وقال محتجاً:

– ليس هذا ما تراضينا عليه مع الملك ومضت عليه سنّة ملوك المناذرة.

ردّ الحشّار بنبرة تأنيب صارمة:

– تراضيتم مع الملك؟ إنما يأمر الملك فيخضع الناس لحكمه. هذه سنّة الملوك مع رعيتهم. فإما الطاعة وإمّا العذاب.

لم يملك معبد إلّا أن يستمهل أسبوعاً حتى يراجع قومه فينظر رأيهم في هذه المصيبة العامة.

* * *

رفع طرفة جسمه عن فراشه متثاقلاً يفرك عينيه، ثم يعصر رأسه من أثر الخمر الذي عبّه الليلة المنصرمة، بينما جاءته أخته الخرنق بطست ماء ليغسل وجهه. ثم قالت متهكمة:

- والله لو أقبلت الخيل علينا بالغارة وصاح صريخ القوم لما كنت تهب من فراشك وأنت على هذه الحال.

قال وهو يغسل وجهه:

- ومن يجرؤ على الغارة في ملك عمرو بن هند، إلّا أن تكون بأمره؟ فإن كانت فلا أحسب أحداً يهب لدفعها وقد أقعدهم الخوف منه، وذهبت الأَنَفَة والحميّة من نفوس القوم.

- ما دمت قد ذكرت هذا. أما علمت أن عمرو بن هند قد أمر بالزيادة في المكوس والخراج، وهذا أخوك معبد مع خالك المتلمّس يقلّبان الرأي فيه.

رفع رأسه متنبهاً ونظر إليها:

- أوَقَدْ فعل؟

هزّت رأسها، وعاد ينظر في الطست، ثم قال متسائلاً:

- يقلّبان الرأي في أمر يعلمان ويعلم القوم كلهم ألّا قِبَل لهم بدفعه، وقد رضوا من قبل أن يكونوا مطايا له ولآبائه من قبل. ماذا جرى للناس؟ كيف رضوا بالذلّة والهوان؟

قالت:

- ملّوا الحرب وويلاتها منذ أن كاد أن يتفانى الحيّان من بكر وتغلب فيما هو أهون من ذلك... ناقة لعجوز شمطاء.

نهض واقفاً يمسح وجهه بخرقة نظيفة، وقد تنبهت الآن حواسه، وبدا عليه الجدّ:

- مسكين أخو بكر... جسّاس بن مرّة... أنِف من الذلّ والهوان، فأرادها حرباً على البغي والباغي... وما هي حتى شاع القول: قُتِل كليب في ناقة. ولَعَمْر الله إن هذا لأشدّ ظلماً لجسّاس وقومه بكر، من بغي كليب نفسه. وكان أحرى بهم أن يعظّموا نخوته وشجاعته... لا واللات والعزّى لم يُقْتل كليب في ناقة، وإنما قُتِل ببغيه وتسلطه على رقاب الناس. وكليب بعد كان سيّد تغلب، وهم أبناء عمومتنا، كلانا من أحياء وائل بن ربيعة، ثم فرقنا بغي كليب فاصطلينا بحربها. فهل نأنف من ظلم القريب ونقاتله على ذلك، ثم نستكين لظلم المناذرة، وهو أشدّ؟!

رمقته الخرنق بنظرة متأمّلة، وقالت:

- ما علمتك قبل اليوم تأبه لحال قومك حتى تغضب من أجلهم هذا الغضب. وكنت أراك غاضباً منهم لا لهم !

- هذا من ذاك... أغضب منهم لأني أغضب لهم... يلومونني في لهوي وشرابي وانصرافي عن مجالستهم وتوحدي عنهم وتقاعسي عما يخف إليه أخي معبد، وهم أحرى باللوم لتقاعسهم في الذب عن حقوق العشير كله في وجه ملك الحيرة!

فإن عجزوا عنه، أفلا ماتوا كراماً؟ وأينا فرّط بماله، أنا الذي أبذله لنفسي، أم الذي ينزل عنه لعمرو بن هند صاغراً، ذليلاً مهاناً؟

لم تره أخته قبل الآن في مثل هذا الجدّ والغضب.

صرفه غضبه عن تحيّة خاله وأخيه حين عبر المجلس في طريق الخروج حتى استوقفه صوت أخيه مؤنّباً:

- نحن في هم طارئ يعمّنا جميعاً، وأنت متعجل إلى حاجة نفسك؟

أجاب:

-أن أسعى في حاجة نفسي خير من السعي في حاجة عمرو بن هند!

قال الملتمس:

- وقد علمتَ بالخبر؟ فما الرأي عندك؟

أجاب:

- الأمر هيّن... امنَعوه إياها.

قال معبد:

- وما الذي يمنعنا من فتكه عندئذٍ؟

أجاب بسرعة:

- سيوفكم... وفتككم... وخلاكم ذمّ!

ازداد معبد ضيقاً وتبرّماً وقال:

- قد علمت أنه لا قِبَل لنا بجنده.

- إذن أدّوا له ما أمركم به، فهل هي إلّا أن تمتنعوا أو تطيعوا؟ فماذا بين الأولى والثانية إلّا قولة ذلك الأحمق العاجز الذي أُخذت

إبله، فلحق بهم ليردها، فلما عاد بدونها وسئل، قال: «أوسعتهم سبّاً وأوْدَوْا بالإبل!»

قال ذلك وخرج مسرعاً. تبادل المتلمس ومعبد نظرة حائرة، فقد قطعت جهيزه قول كل خطيب!

والحق أن طرفة كان يطوي صدره على مشاعر مختلفة بين الغضب والتشفّي والرجاء معاً: الغضب من خنوع قومه لملك الحيرة، وهم الذين يتفاخرون بأنهم إحدى جماجم العرب المعدودة. وهي القبائل الكبرى من حيث العدد والفروع والأحياء. ومثلهم عبد القيس، من ربيعة، وتميم وكنانة وهوازن وغطفان من مضر، وكل هؤلاء من العدنانية، ويضاف إليهم مذحج من القحطانية اليمانية. وأما التشفّي فلسكوتهم عن الظلم الذي أوقعه أعمامه به وبأسرته بعد موت أبيه حتى ردعهم بلسانه وشعره، فوقع في نفسه أنهم يستقوون على ضعيفهم، ويخنعون للغريب الباغي. حتى إذا كبر وبلغ الثامنة عشرة من عمره، واختار لنفسه طريقة غير طرائقهم وتفرّد بنفسه عنهم، سلقوه بألسنتهم وعاملوه معاملة البعير الأجرب. وأما الرجاء فهو أن يحملهم بغي ابن هند وإثقالهم بالمكوس والمغارم على أن تأخذهم الحميّة فيأبوا عليه ثم يناجزوه إذا اقتضى الأمر، ومعهم قبائل أخرى قد كرهوا من ابن هند ما كره قومه.

ولم تكن حيرة المتلمس ومعبد بأقلّ من حيرة أشياخ بكر ووجوهها. وبعد أن قلّبوا الرأي في ناديهم استقرّ أمرهم على أن يراجعوا عامل ابن هند على بلدهم: هجر والبحرين. فهو وإن كان من عبد القيس فإن له خؤولةً في بكر، عسى أن يذكرها فيرعاها.

ولكن أخا عبد القيس وإن كان قد ضاق حقاً بأمر الملك في زيادة المكوس، لم يكن يملك من أمره شيئاً. فهو عامله، يُؤْمَر فيطيع، وإلّا فهو السيف. ولذلك أحسن استقبال الوفد، ولانَ لهم بالكلام وذكر خؤولته فيهم، ولكنه ردّهم بما ردّ به قومه عبد القيس الذين شكوا إليه ما تشكو بكر. ومن ساواك بقومه فما ظلم. فخرجوا من عنده خائبين يجرّون أذيال الفشل. ولكنه أمهلهم وقتاً كما طلبوا ليتدبروا المال.

عادوا يتداولون الرأي في ناديهم. فقال قيس بن خالد، وكان من رؤسائهم:

- أما عامل هجر فقد صَدَقنا القول، إنما هو خادم ابن هند. ولا يؤاخذ الرجل عما ليس في وسعه. وقد ساواكم بقومه، وإن أنتم ناجزتموه لم تبلغوا شيئاً، واستعديتم قومه عليكم... وإنما ظلامتنا عند ابن هند، فاحزموا أمركم، فإما أن تؤدّوا له، وإلّا فهي الحرب والكريهة.

قال أبو الربيع:

- وماذا نؤمّل من حرب ابن هند، غير إفناء العدد، وثكل الولد!

هنا فوجئ القوم بصوت طرفة:

- خير من حياة الذل والمهانة.

اتجهت أنظار الحضور إلى الباب حيث كان يقف طرفة، وما كان قبل ذلك ليغشى مجالسهم، وسُمِعت منهم أصوات لَغَط ودندنة...

قال قيس بن خالد مُرحِّباً:

- أهلاً ومرحباً بأخي العشير... دونك فاجلس.

ولكنه بقي واقفاً في مكانه يستعرض وجوه الحضور، وكان عمه أبو الربيع أكثرهم ضيقاً بحضوره، فعلّق قائلاً:

- ما أهون ما قلت على اللسان، وما أشدّه في حالة الصبر.

أجاب طرفة:

- وهل تنال المعالي بغير الصبر والمصابرة؟

ردّ أبو الربيع:

- وما نفعها للميت وقد جاف؟

قال طرفة:

- ربّ حيّ كآخر هالك... وربّ هالك ترك ذكراً، فصار أبقى من الميت.

قال أبو الربيع:

- طيش الشباب.

ردّ طرفة:

- خير من حكمة تخفي عجزاً وذلًّا!

ظهر الامتعاض الشديد على وجه أبي الربيع، وتدخّل عمرو ابن مرثد، وهو من كبار القوم أيضاً، فقال:

- ما لنا ولهذا السجال؟ ما له اجتمعنا.. فابسط رأيك يا ابن العبد، لنرى رأينا فيه.

تحرّك في المكان، ثم قال:

- أحسب أن بعضكم يقول: لم يكن ملك الحيرة شرّاً كلّه، فقد وطّد الأمن بين القبائل، وعقد بينهم العقود، وكفى بعضهم بأس بعض حين اجتمعوا على أمره وطاعته. ولكنه لم يفعل ذلك حبّاً وكرامة... وإنما لينفرد ببأسه على الجميع، فكان أشدّ عليكم بأساً من بأس بعضكم على بعض. فإن أوجس من قبيلة شراً عليه، أخّرها وقدّم غيرها، وأيقظ الضغائن القديمة، وضرب بعضها ببعض ثم بنفسه وجنده، فإن أعياه الأمر استعان بجيش الأكاسرة.

تدخل قيس بن خالد قائلاً:

- أهذه حجة لك أم عليك يا ابن العبد؟

وأردف أبو الربيع بالقول:

- ذلك أحرى بأن نوادع عمرو بن هند، كيلا نترك لتغلب سبيلاً علينا عنده.

قال طرفة:

- ألا أدلكم على خير من ذلك؟ نراجع تغلباً ونوادعها ونحالفها، فإنه قد نالها من بغي ابن هند ومغارمه كالذي نالكم... ومثلهم آخرون. وما يمنعهم من خلاف ابن هند إلّا ما يمنعكم... أن يميل بعضكم معه على بعض.

علا اللغط في المكان، حتى صاح أحدهم معترضاً:

- نحالف تغلباً وقد كان بيننا وبينهم ما كان. ما نقول لهامات آبائنا!

أجاب طرفة:

- عجباً لكم... تأنفون من محالفة تغلب على مدافعة الظلم، ولا تأنفون أن تجتمعوا معهم على الذل والهوان والخضوع لملك الحيرة، ومن ورائه الأعجمي؟ وما الذي فرّق بينكم وبين تغلب وهم أبناء عمومتكم، فكلكم من ربيعة. ألم يكن بغي ابن عمكم كليب التغلبي؟ فكيف أنفتم من بغي القريب حتى كانت تلك الحرب، ثم لا تأنفون من بغي المناذرة من آل لخم؟ اسمعوا قولي وخلاكم ذمّ، إن الذي فرّق بينكم وبين تغلب في الأمس هو الذي يجب أن يجمع بينكم وبينهم اليوم: كراهة الظلم وحمية الحرّ، وإلا حق لكم أن تقولوا: يا لضيعة هامات الآباء. ذهبت بلا طائل.

صمت القوم كأن على رؤوسهم الطير، حتى قال عمرو بن مرثد بلهجة مترفقة:

- إن لك حجّةً يا ابن أخي...

قال طرفة بثقة واعتداد:

- بل جئتكم بما يترككم على مثل خد الفرس.

قال ابن مرثد:

- ربما كان ذاك.ولكن خدّ الفرس لا يبقى واضحاً أملس حين يُضرَب بالسيوف. وليس ما تدعونا إليه بالأمر الطارف الذي لم نختبره من قبل. فقد حاولت بكر الانقضاض على المناذرة وأنت بعد في اللفاع والتمائم، وحاولت مثله قبائل أخرى، فلم ترجع بخير.

قاطعه طرفة:

- كل على حدة. وبذلك غُلبوا...

استأنف ابن مرثد:

- وما الذي يضمن لنا أن تطاوعنا تغلب الآن؟

- لن تعرفوا حتى تراجعوهم.

- فإن أبت علينا، ثم توصّلت بذلك عند ابن هند تؤلّبه علينا وتتقرب إليه، فنصير وحدنا في عداوته، ومعها عداوة تغلب؟

قال طرفة:

- من أمضى عمره في مقارنة الحجج وترجيح الظنون، لم يبلغ شيئاً. وما زالت الحياة محفوفة بالأخطار... ولا فوز بلا مغالبة.

قال ذلك وخرج من فوره، وخلّف القوم يتبادلون النظر صامتين يقلبون الرأي، وقد أعيتهم حجته.

* * *

سرّه أن يعلم أن القوم قد أجمع جُلّهم أخيراً على الأخذ برأيه، فأوفدوا إلى شيوخ تغلب في الأمر على سبيل التشاور. فأحسن هؤلاء استقبالهم وأنصتوا إليهم، وأظهروا لهم أنهم يجدون من ملك الحيرة مثل الذي يجدون. ولكنهم طلبوا أن يمهلوهم شهراً حتى يراجعوا سائر أحياء تغلب التي تباعدت منازلهم. فالأمر جلل، دونه أهوال الحرب ومقاتل الرجال، فيحتاج إلى جمع عظيم.

ولم ينقض الشهر حتى وصل الخبر الصاعق. فقد خرج وفد من تغلب إلى عمرو بن هند في الحيرة بالخبر، وأن بكراً تحرّض عليه

وتدعو إلى العصيان، وأن تغلب تقدّم ولاءها له على أبناء عمومتها، فإن شاء حملوا معه عليهم، ولم يدّخروا سيفاً ولا رمحاً! وكان الذي أعلم بكراً بالخبر عامل هَجَر، وقد فعل ذلك إشفاقاً عليهم ووفاءً بحق خؤولته فيهم.

ولامهم أشد اللوم أنهم استمعوا إلى تحريض ذلك الفتى الطائش الذي ما زال عاكفاً على لهوه وشرابه، لا يهمّه شيء من أمر العشيرة حقاً، بل ما زال منذ دهر يسفّه آراءهم ويخالف عن أمرهم ويغلظ عليهم بالقول. ولا يرعى لهم ذمّة في أفعاله، حتى لم يسلم أعمامه من لسانه. فهل صحا فجأة على كرامتهم وهو أشدّ الناس طعناً بها، إلّا أن تكون غايته الإيقاع بقومه لما في نفسه من النقمة عليهم؟ ثم نصحهم قائلاً:

- لا أرى لكم إلّا أن تتعجلوا السفر إلى الحيرة، فتقدموا بصدق الاعتذار للملك، قبل أن يجرّد عليكم جنده والقبائل الأخرى، وإنه لا قِبَل لكم بذلك. أما ذلك الفتى الطائش فلا ينجيكم من جرائره إلّا أن تتبرأوا منه ومن عمله. فإما أن يكون على أمركم، وإما أن يحتمل وحده عواقب أعماله. وعلى ذلك جرت قبائل العرب، إذا انفرد أحدهم برأسه ورأيه وفعاله وأطاع نفسه، حتى صار غرمه على قومه أثقل من مغنمه، خلعته وتبرّأت منه، كيلا يذهب الجمع بغرم الواحد. وقد نصحت لكم وأعذرت. فاختاروا لأنفسكم وعيالكم.

* * *

(6)

في قصر الخورنق بالحيرة، جلس عمرو بن هند على سريره المَطْلوّ بالذهب والمرصّع بالحجارة الكريمة، والمفروش بحشايا الدِمْقَس والحرير الموشّى بخيوط الذهب، وقد اتكأ على سيفه، يحيط به أشقاؤه الثلاثة، وبعض ندمائه، قبل أن يأذن لوفد بكر بالدخول عليه، بعد أن تعمّد أن يوقفهم في الدهليز وقتاً طويلاً إمعاناً في إظهار سطوته وجبروته. ثم دخلوا عليه منكّسي رؤوسهم كما أمرهم حاجبه، ولم يجلسوا حتى أذن لهم، وكان شديد العبوس. وبعد هنيهة صمت، ابتدرهم بالسؤال:

- ما شأن خبر بلغنا عنكم فأنكرناه؟

تولّى قيس بن خالد الكلام:

- أبيتَ اللعن، قد بَلَغنا كما بَلَغكم، فلا إنكارنا له بأقلّ من إنكاركم. إنما هي أقوال الوشاة الحاسدين. نفسوا علينا ما بيننا وبين الملك من نسب وصهر، وما له عندنا من أيادٍ بيضاء، وما لنا عنده من صنائع تقدمنا بها عليهم، يومَ أغرنا معكم على ملك غسّان فقتلناه واستنقذنا منه أخا الملك الأسير، ويوم خرجنا مع جدّ الملك إلى جموع كندة فحطّمنا كتيبتهم الخضراء ورددنا الخيل على أعقابها. وتلك أيام أبلينا فيها مع بيتكم، فحق لنا أن نفاخر بها العرب، وحق لتغلب أن تنفسنا عليها، فلا تجد غير سبيل الوشاية والوقيعة، غير أن حبال

الغي قصيرة، ولو كان في تلك التهمة شيء من الحق، لعلمنا أن الملك يميّز صدقها، فانقطعت بنا أسباب المعاذير، ولم نُقبل عليه بوجوهنا نسأله أن ينتصف لنا ممن رمانا ببهتان. ولقد علم الملك صدق عهودنا، وعلم من تغلب نقض العهود بعد إبرامها. وما خبر ذلك ببعيد، حين أرسل الملك، عزّ ملكه، قائده الغلّاق بن شهاب التميمي، فأصلح بيننا وبين تغلب بميثاق الملك وعهده، فوفت بكر، ونقضت تغلب، وأغارت علينا بعدئذٍ، وبقيت النفوس على دَخَن. حتى كان هذا الأمر، فانكشفت الضغائن، وعلى الباغي تدور الدوائر.

وهذا شاعرنا الحارث بن حلزة اليشكري ببابك، قد أنطقه الرجاء بك وتعظيم أمرك بقصيدة طويلة عصماء لم يقل مثلها أحد من قبل، وأبى إلّا أن يتجشم معنا وعثاء السفر على هرمه ورقّة عظمه، ليُسمِعكم إياها بنفسه، فلو أذنتم له فعل... أبيت اللعن.

رانَ الصمت على المكان، واسترق البعض نظرات خاطفة ينظر في وجه الملك الذي بقي جامد الوجه لا ينبئ بشيء. ثم أشار إلى حاجبه فخرج ثم عاد يقود شيخاً حاني الظهر، ضعيف الساقين يتوكأ على عصا بطول نصف الرمح فيها سنان، وتسمّى الغَرْزة. وقد أشاح بوجهه بحيث لا يظهر للملك، وسار به الحاجب إلى مقعد وراء ستارة ضُرِبت بينه وبين الملك كيلا يتأذى من منظر برصه. جلس متكئاً على غرزته ينتظر الإذن، فلما جاءه بدأ بصوت متقطع متهدّج من هيبة الموقف:

آذَنَتنـــــا بِبَينِهـــــا أَسـمـاءُ
رُبَّ ثـــاوٍ يُمَـــلُّ مِنـــهُ الثَـــواءُ

بَعـــدَ عَهـــدٍ لَهـــا بِبُرقَـــةِ شَـــمّا
ءَ فَـــأَدنى ديارِهـــا الخَلصَـــاءُ
فَالمَحيّـــاةُ فَالصَـــفاحُ فأعنـــاق
فِتـــاقٍ فَغَـــاذِبٌ فَالوَفـــاءُ

* * *

لا أَرى مَـــن عَهِـــدتُ فيهـــا فَـــأَبكي
اليَـــومَ دَلهـــاً وَمـــا يحـــير البُكـــاءُ
وَبِعَينَيـــكَ أَوقَـــدَت هِنـــدٌ النـــا
رَ أَخـــيراً تُلـــوي بِهـــا العَليـــاءُ
فَتَنَـــوَّرتُ نارَهـــا مِـــن بَعيـــدٍ
بخـــزارى هَيهـــاتَ مِنـــكَ الصـــلاءُ

ومضى في الإنشاد حتى اشتدّ صوته وزايلته الرهبة، وتوصل إلى الاعتذار ودفع التهمة ومدح الملك، فكان مما أنشد:

وَأَتانـــا عَـــن الأَراقِـــمِ أَنبـــا
ءٌ وَخَطـــبٌ نُعنـــى بِـــهِ وَنُســـاءُ
يَخلِطـــونَ الـــبَريءَ مِنّـــا بِـــذي الـــذَ
نـــبِ وَلا يَنفَـــعُ الخَـــلِيَّ الخِـــلاءُ
أَيُّهـــا النـــاطِقُ المُـــرَقِّشُ عَنّـــا
عِنـــدَ عَمـــرٍو وَهَـــل لِـــذاكَ بَقَـــاءُ

لا تَخَلنــا عَــلى غراتـــك إنّـــا

قَبــلُ مــا قَــد وَشــى بِنـا الأَعــداءُ

مَلِـــكٌ أَضــلَعُ البَرِيَّـــةِ لا يــو

جَــدُ فيهـــا لِمــا لَدَيـــهِ كِفــاءُ

أَيُّهـــا الشــانِئُ المُبَلِّـــغُ عَنّـــا

عِنــدَ عَمــرٍو وَهَــل لِــذاكَ اِنتِهــاءُ

إنّ عَمْـــراً لنـــا لديـــه خِـــلالٌ

غــير شـــك في كُلّهـــنّ الــبلاءُ

مَلِــكٌ مُقسِــطٌ وَأَكمَــلُ مَــن يَمــشي

وَمِـــن دونَ مـــا لَدَيـــهِ الثَنـــاءُ

حين بلغ هذا الموقع من قصيدته، مدّ الملك يده وسحب الستار المضروب بينه وبين الحارث، فعرف القوم أنها علامة الرضا والقبول والإعجاب. فتنفسوا الصعداء وانفرجت أساريرهم لأول مرّة. أما الحارث فاهتز كلّه لهيبة الموقف حتى سقطت الغرزة التي يتوكأ عليها من يده. فتريث لحظة يلتقط أنفاسه قبل أن يكمل:

إِرَمِـــيّ بِمثلِـــهِ جالَـــتِ الخيـــل

فَآبَـــت لِخَصـــمِها الإِجــلاءُ

مَـــن لَنـــا عِنـــدَهُ مِـــنَ الخَـــيرِ آيـــا

تٌ ثَـــلاثٌ في كُلِّهِـــنَّ القَضــاءُ

ومضى في إنشاء قصيدته التي ستدخل في معلقات العرب وتسير بها الركبان، حتى فرغ منها، والملك في أثناء ذلك يهز رأسه هزّا خفيفاً وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة هادئة.

* * *

(7)

أخذ المتلمس الذي كان في ذلك الوفد يستعرض بعض هدايا الملك التي رجع بها من عنده: قطيفة من المخمل الموشّى، وسيف مرصّع. وبدا شديد السعادة والفخر وهو يقول:

- وزاد عليها فرساً عتيقاً، لم أركب مثلها من قبل.

دارى طرفة غيظه ومرارته وخيبة أمله، وتناول السيف من خاله يستعرضه ويتحسسه، بين أمه وأخيه وأخته، بينما استأنف المتلمس بالحماس نفسه:

- ومنح مثل ذلك لقيس بن خالد، وعمرو بن مرثد، وابن عمكم عبد عمرو بن بشر. أما الحارث بن حلزة فعاد بخير حال منذ ولدته أمّه.

نظر إلى طرفة وهو يتفحّص السيف، فقال:

- لو لم يكن من عطايا الملوك، وأرجو أن أورثه لأبنائي فيكون فيهم ذخراً ومأثرة، لأهديتك إياه.

هز طرفة رأسه مع ابتسامة غامضة، وقال بنبرة تنطوي على بعض التهكم:

- وأي مفخرة! أرى أنكم عدتم جميعاً بالمفاخر.

تابع المتلمّس:

- ولكني لم أذكر لكم ما هو أحسن من هذا كلّه. قد أدناني عمرو بن هند مع ابن عمكم عبد عمرو بن بشر، فجعلنا في جملة جلسائه، نذهب إليه متى شئنا، فنتعرض لصحبته ووصله.

علّق طرفة متهكماً من جديد:

- نِعْمَ الجلساء لخير الملوك.

ثم استدار إلى خاله وهو يقلّب السيف:

- كنت أحسب أن السيف في غمده ليس بشيء حتى يُسَل في مواطن العزيمة. وذلك ما يسمو به الحرّ في حياته، ويورث ذكره لمن بعده. أفبعد أن احمرت أنوفكم وتنافختم غلبكم الخوف، فلم تجدوا إلّا الاعتذار بكلام تعلمون كذبه، وهو كذلك يعلمه، ولكنه رضي منه ما وراءه من صدق الخوف والخضوع.

تغيرت ملامح المتلمس إلى العبوس، وخطف السيف من يد طرفة وقال:

- تغلب ألجأتنا بغدرها.

أجاب طرفة:

- وأحسب أن تغلب تقول: بكر ألْجَأَتْنا.

قال المتلمس بصوت متردد:

- وإن شئت أن أزيد، فأنت أيضاً ألجأت القوم بذلك الرأي الذي كاد أن يوردهم المهالك، حتى تشاءموا بك.

ردّ طرفة:

- ولكني لم ألزمهم، إنما بسطت رأيي.

- وندموا. يقولون: كيف أطعنا فتى طائشاً ونحن أولو الرأي. قد غرّنا بسحر كلامه. وقد بلغ كلامك عامل هجر، فنصح وحذّر وأنذر، ولولا قرابته فينا لأخذك به.

- بل استنهضت هممهم في حقوق غُلِبوا عليها. فما الذي رجعتم به من عنده؟ سيف مرصّع وقطيفة حمراء، والتفضل على بعضكم بغشيان مجلسه في يوم نعيمه؛ يتسلى بطرائفكم ونوادركم، ويُخدِمُكُم ويسقيكم من فضل إنائه. وكم تساوي تلك الهدايا من المال الذي تغرمونه له؟

تدخلت وردة بنبرة التأنيب:

- حسبك يا طرفة، إنه خالك.

قال المتلمس:

- ذريه يا وردة... قد علمتني الأيام أن للحق وجوهاً. وقد والله جاء ولدك بوجه منه. وقد كنا مثله في صبانا، وما زال بي جذوة من ذاك حتى أني هجوت عمرو بن هند غير بعيد. ثم قالت لنا الأيام فقطعت جهيزة قول كل خطيب. غداً تغلبه السنين، وترُوضه الكَبْرة، فيرى من وجوه الرأي ما لا يرى الآن، ويحلو له ما يجده الآن مرّاً، وقد يحتج على حميّة شبابه بحكمة كهولته.

قال طرفة وهو يهمّ بالخروج:

- إن كان الذي تقول قضاءً محكماً، فأماتني الله قبل أن أصير إليه.

رانَ الصمت بعد خروجه، وأطرق المتلمس متفكراً، ثم رفع رأسه ونظر في أخته وابنها الأكبر معبد وقال:

- لا أخشى على هذا الفتى إلّا من عِظَم نفسه التي لا تسعها جماعته. فهو أمة وحده. فإما أن يلحق به قومه فيعزّوا به أو يهلكوا معه، وإما أن يعيش وحيداً ويهلك وحيداً عزيزاً محموداً. فلا أدري هل أغبطه أم أخشى عليه!

* * *

(8)

كان يشعر بمرارة شديدة وهو ينطلق بفرسه في البرّ الواسع خارج قريته على غير هدى. وكانت تلك عادته كلما ضاقت نفسه بأمر ما واستوحش من الناس. وقبل أن يبتعد بحث عن قبر والده فلم يجده، فقد عفت عليه الريح والرمال حتى ضاع أثره. غمره الحزن، وجالَ ببصره في المكان... لا شيء ينبئ بمكانه. ثم خطر له خاطر: إن لم يكن ذلك، فكل هذا المدى قبره وإنه لأوسع عليه من وسع هذه القرية على ولده! أيكون باطن الأرض أوسع من ظاهرها كما أن الوحدة أوسع عليه من مخالطة الناس الذين تنكروا لإرث آبائهم في طلب الحق والأنفة من الظلم وحماية الجار؟ هؤلاء قوم ثاروا بابن عمهم كليب التغلبي حين اتخذ لنفسه رسوم الملك على طريقة الأعاجم وجعل حمى بكر وتغلب حماه الخاصّ، فلا يجير أحد منهم ولا يصيد بغير إذنه، وقد كان قبل ذلك مشاعاً لهم يستوي في ذلك صغيرهم وكبيرهم، فإذا أجار أحدهم حملت القبيلة معه، وسعى بذمتهم أي منهم. فكيف استطاع ملوك المناذرة من لخم أن يفرضوا عليهم طاعتهم فلا يملكون مع حكمهم أمراً ولا نهياً؟ وفعلوا مثل ذلك مع سائر القبائل الذين أخضعوهم لملكهم. وهذا عمرو بن هند قد قسم أيامه يومين: يوم نعيم ويوم بؤس، فمن لقيه في يوم نعيمه أنعم عليه، ومن ساقه سوء حظه في طريقه يوم بؤسه بطش به، إلّا أن يكون من خاصّته. وحين تجرّأ عليه حيّ من تميم،

وهي من أعظم القبائل وأكثرهم عدداً ونفيراً، حرّق مائة منهم ليكونوا عبرة لغيرهم، فقد كان شعاره أن يحكم بالرعب، فهو أحرى بردع خصومه ومبغضيه. ولو أنه كان ممتنعاً في رهطه وعصبته من لَخَم فقط لهانَ على الناس أن يناجزوه، ولكنه استطاع أن يؤلّب القبائل بعضها على بعض، حتى تقدمت عداواتها على عداوته، فإذا خرج عليه بعضهم، جمع عليه جنده والقبائل الأخرى، كل يرجو أن ينال بذلك رضاه ويصيب من عطاياه، ويتقدم بذلك على غيره. فإن لم يكن ذلك كافياً، فمن ورائه جيش كسرى الذي يدين له بالولاء، ويؤدي له قسماً معلوماً مما يجمع من المكوس والخراج. ومن ذا الذي يصمد لجيش كسرى؟ فبه تغلّب على كل تلك القبائل والأنحاء.

لماذا ظنّ إذن أن تغلب ستواطئ بكراً ولن تسبق إلى ابن هند بالوشاية والتحريض، حين استنهض قومه لذلك؟ ولماذا لا يلتمس لهم الأعذار أمام تلك الظروف القاهرة التي يعلمها؟ فإن لم يحدث بها نفسه، ذكّره بها الآخرون، وفي مقدمتهم أخوه معبد الذي نقل له تحذيرات عامل هجر ودعوته الناس إلى مفارقته ونبذه كيلا يحتملوا جرائره. فهو رجل في قبيلة، وقبيلة في رجل كما يراه غيره، وإن أحبّ أن ينفرد عنهم بنفسه ويطيع هواه ويحتكم لرأيه وقلبه. فلما احتج طرفه بدواعي المروءة والحميّة ورفض الذل والظلم، قال معبد:

– قد قلت حقاً، ولكن العاقل يقدّر الأمور بأقدارها. فما الجدوى في طلب حق لا نملك وسيلته، إلّا أن نضيّع معه حقوقاً أخرى، ومعها هلاك الولد والعدد. فكانت خسارتنا أعظم مما كان قبل ذلك. وما زلت تذكرنا ببغي كليب، وأنه والله لحقّ. ولكن ما الذي جنيناه من طعنة جسّاس بن مرّة البكريّ؟ مقاتل الرجال وتفرّق

حيي بكر وتغلب، وأوتار مقيمة في النفوس، حتى نسي الناس أصل الحرب، وهو بغي كليب وتسلّطه، وشاع القول: قُتِل كليب في ناقة، وسمّوها حرب البسوس باسم صاحبة الناقة. وما زال الناس يتشاءمون بالبسوس وناقتها تلك، حتى انقلب الميزان، وصار كليب ضحية، وجسّاس قاتلاً متهوراً جنى على قومه! وأولئك حيان من وائل بن ربيعة. فكيف بملك الحيرة ومن ورائه مُلك الأكاسرة!

حجّة قويّة، لم يجد طرفة معها إلا التساؤل كمن يخاطب نفسه:

- ومتى تكون مواقف المروءة إذن؟ حين تخلو الأرض من أسباب الخوف، فلا يغالب الرجل إلا من عَلِم عِلْم اليقين أنه قادر عليه؟ وأين قول القائل: أن تموت حراً كريماً خير من حياة الذل والمهانة؟

أجاب معبد:

- لا يُنال الحق يا أخي إلّا مع أسباب القدرة.

- وكيف تُنال أسباب القدرة؟ أتراها تنزل مع غيث السماء أم تنبت مع حشاش الأرض؟ ولا أرى القوم يعدّون من أسباب القوّة ما يناجزون به عمرو بن هند في قابل الأيام. وإذا كان تقلّب الأيام سلاحكم عليه، فإنها على الضعيف العاجز أمضى منها على القويّ القادر.

فليكن إذن... لا يقدر القوم على مغالبة عمرو بن هند... ولكن، إذا لم تعد القبيلة قادرة على أن تمنع نفسها جماعةً من ملك جبّار، فهي لا تستطيع أن تمنع أحد أفرادها منه. فما حاجة الرجل إلى

قبيلته؟ لِمَ يؤدي لها تكاليفها من حريته وخياراته الخاصة إن لم تؤدِّ له في المقابل مغنم الحفظ والحماية؟ ذلك إذن بيع خاسر. ولماذا يجب عليه أن ينتظم في أمرها الجامع ويعصي حاجات نفسه ورغبته الجامحة في أن يعيش كما يريد حرّاً طليقاً مثل وحش الأرض؟ فما بالهم يعذلونه في لهوه وشرابه ولعبه الميسر مع ندمائه وقيانه، وإنفاقه ماله؟ فإن كان ملك الحيرة يشركهم في أموالهم لينفقها على قصوره ومتعه ومتاعه وندمائه، ويؤدّي منها لكسرى، فهو أوْلى بأن ينفقها على نفسه ولذاته وندمائه وقيانه، وعلى فقراء الناس. نعم، فقراء الناس من قومه وغيره. فقد انقضى ذلك الزمان الذي كانت فيه القبيلة ذمة واحدة في الدم والمال، فلا يبيت فيهم جائع. أما الآن فهم يفاخرون غيرهم بأنسابهم وأيامهم، فإذا فرغوا من ذلك افترقوا فيما بينهم منازل من الغنى والفقر، وفاخر بعضهم بعضاً على ذلك. وقد يزوجون الغريب الغني، ويتركون القريب الفقير. وما كانوا كذلك من قبل، فصار المال يزاحم النسب في المنزلة، ومع هذا الحال يأتي البخل والأَثَرة.

أليس هذا ما دعا بعض النفوس الحرّة إلى الاستيحاش من قبائلهم، حتى خرجوا منها وانقطعوا عنها وتصعلكوا في أرض الله؟ فهذا أمير الصعاليك عروة بن الورد العبسي، كان في الصدر من قومه نسباً ولم ينجه ذلك من الفقر، حتى قال:

دعيني للغنى أسعى فإني
رأيت الناس شرُّهم الفقيرُ
وأبعَدُهم وأهونُهم عليهم
وإن أمسى له حَسَبٌ وخِيرُ

ويُقصـــــيه النـــــديّ وتزدريـــــهِ
حليلتُـــــه وينهـــــرُه الصـــــغيرُ
ويُلْفـــى ذو الغنـــى ولـــه جـــلالٌ
يكـــاد فـــؤاد صـــاحبه يطـــيرُ
قليـــل ذنبـــه، والـــذنب جَـــمٌّ
ولكـــنْ للغنـــى ربٌّ غفـــورُ!

وذاك الشنفرى يضيق بقومه، فيخرج منهم، ليتخذ وحوش البرّ، من ذئب وفهد وضبع، أهلاً دونهم:

أقيمـــوا بنـــي أمّـــي صـــدور مَطـــيّكم
فـــإني إلى قـــومٍ ســـواكم لأمْيَـــلُ
فقـــد حُمّـــت الحاجـــاتُ والليـــل مُقْمِـــرٌ
وشُـــدّت لطيّـــاتٍ مطايـــا وأرْحُـــلُ
وفي الأرض منـــأىً للكـــريم عـــن الأذى
وفيهـــا لمـــن خـــاف القِـــلَى مُتَعَـــزَّلُ
لعُمـرك مـا في الأرض ضـيقٌ عـلى امـرئٍ
سرى راغبـــاً أو راهبـــاً وهـــو يَعْقِـــلُ
ولي دونكـــم أهلـــون ســـيّد عَمَلَّـــسٌ
وأرقـــطُ زهلـــول وعَرْفـــاءُ جَيْـــأَلُ
هـــم الـــرهطُ لا مســـتودَعُ الســـرّ ذائـــعٌ
لـــديهم ولا الجـــاني بـــما جَـــرّ يُخْـــذلُ

فمن لم يخرجه الفقر من قومه كما أخرج أمثال عروة والشنفرى، فلربما أخرجوه وخلعوه لأن نفسه الحرّة أبت أن تطيع غيرها. أما هو، فإنه وإن لم يزل مقيماً في قومه، فإنه غريب فيهم، ينكرهم وينكرونه. فليذروه إذن وما هو عليه، لا يقتضون منه ولا يقتضي منهم. فأهون عليه أن يُفْرَدَ إفراد البعير الأجرب، من أن يساق في قطيع يدور معه أنّى دار، دون أن يملك نفسه وإرادته.

كل هذه الخواطر كانت تدور في ذهنه وهو يجلس وحده إلى شجرة سدر منفردة في المدى المفتوح، ويرقب مغيب الشمس في الأفق المضرج بحمرة الغَسَق، وبواكير العتمة تهبط على الجبال السود البعيدة، وشبح قافلة تعبر بالقرب منها نحو غايتها. ولأول مرّة ذهبت عنه المرارة وشعر بخفّة غريبة. نعم، قد غرّبه عن قومه كل تلك الأسباب التي دارت في خاطره: تسلّط ملك الحيرة وعجز قومه وظلم ذوي القربى. ولكنه كان يرجع على نفسه باللوم والتهمة أحياناً ويتمنى لو كان كأحدهم، أو كأخيه معبد، فيتحرر من ثقل الشعور القاسي بالغربة وهو فيهم. ولكنه منذ تفتح وعيه على الدنيا كان ينفر من كل القيود التي تكبّل روحه وحريته وتحاصر سجيّته وتمحو ذاته المتفرّدة المختلفة. كانت تلك طبيعة فُطِر عليها بوجود كل تلك الأسباب التي يأخذها على قومه، أو بغيابها. ولكن وجودها الآن لم يعد يغيظه إلّا بقدر ما يحرّره من لوم نفسه.

منذ اليوم، لن يكون غير ما يريد، ولن يلتفت إلى عذل العاذلين.

((وما كثرة الحديث عن العذل والعذّال واللوم واللّائمين والرقباء في أشعار العرب إلّا دليلٌ على تسلّط الجماعة وتقاليدها

ومعاييرها على الفرد. فهل تتخلّى عن تقاليدها في حفظ أفرادها، وتمسك تقاليدها في استلاب حريته؟ تلك إذن قسمة جائرة!

منذ اليوم سيقضي أيامه على تخوم القبيلة حيث تجتمع أسباب اللذة المنفلتة مع أسباب الخطر. فإن هلك بها كان هلاكه بأمر نفسه وهو وحده سيّدها.

هذا ما انتهى إليه تفكيره وهو يشهد الشمس تغيب خلف الأفق والجبال السود!

* * *

(9)

كانت تقف عند تاجر الأقمشة تقلّبها وتقارن بينها، وقد تضع إحداها على صدرها وتنظر كيف يمكن أن تبدو بها، وما زالت تفعل ذلك دون أن تهتدي إلى رأي. وحين أبدت إحدى صويحباتها الملل والتعجل، قالت:

- كثرة الخيرة تفضي إلى الحيرة!

عندئذٍ سمعت صوتاً من خلفها يقول:

- إنما يحسن الثوب بصاحبته الحسناء وإن كان خَلَقاً، كما يحسن السيف بيد الفاتك البطل.

التفتت إليه، فرأته يبتسم وهو يدقق النظر فيها، وقد أعجبه من حُسْنها ما أعجبها الآن من وسامته. ولكنها أنكرت جرأته، واعتراها الحياء فأشاحت بوجهها عنه وعادت تنظر في الأقمشة تداري بذلك. ولكنه استأنف قائلاً باعتداد مشوب بالدعابة:

- أما رأيت السيف في غمده لا يكون شيئاً وإن كان صارماً بتّاراً، حتى يسلّه من كان مثلي، فيقطع به وإن لم يكن قاطعاً صقيلاً في نفسه. والفرس السابقة في مربطها كسائر الدواب، حتى يمتطيها مثلي فتصير كتيبة؟

ردّت دون أن تلتفت إليه بنبرة أخفقت في أن تجعلها حازمة قاطعة:

- ما هذا بالموضع الذي يُسَلّ فيه السيف أو تجري فيه الفرس. فلماذا لا تلتمس لك مكاناً يصلح لهما، إن كنت كما تصف.

أجاب بسرعة:

- وتعجبين؟ أما علمت أن معشر الأبطال يذكرون العزيمة في مشهد الحسناء، ويذكرون الحسناء في مشهد العزيمة.

ثم أنشد من شعر عنترة:

ولقـــد ذكرتـــك والرمـــاح نواهِـــلٌ
منـــي وبـــيضُ الهنـــد تقطّـــر مـــن دمـــي
فـــوددت تقبيـــل الرمـــاح لأنهـــا
لَمعـــت كبـــارق ثغـــركِ المتبَسِّـــمِ

ثم أردف:

- هكذا نحن، نقضي العمر بين سيفين، سيف الحديد، وسيف العين الحوراء، ولعمري إن الثاني لأشدّ قطعاً من الأوّل.

كان يمكن أن تتجاهله تماماً، أو تنصرف عن المكان لتتخلص منه. ولكنها لأمر ما لم تفعل، واكتفت بالقول وهي تواري ابتسامتها:

- امضِ الآن قبل أن يراك بعض أهلي فيجتمع عليك السيفان معاً!

كان التاجر في تلك الأثناء منشغلاً بآخرين، وحين ارتد إلى الفتاة لينظر فيما عزمت عليه، ورأى طرفة واقفاً على بُعد خطوات منها، صاح مرحِّباً:

- أهلاً بفتى بكر... طرفة بن العبد. هل لك حاجة فنقضيها؟

أجاب:

- للقلب حاجات يا أخا العرب، ولكن، لستَ أنت بالذي يقضيها.

كان التاجر كغيره معتاداً على طريقة طرفة في الكلام المبطّن المُشْتَبِه. فتوجه إلى الفتاة بالسؤال:

- هل عزمت على شيء مما عندي؟

ألقت القماش من يدها وقالت بتضجّر:

- ما أبتغي ليس عندك.

هل أرادت بجوابها أن توحي لطرفة مثل الذي أوحى لها من التودّد والقبول؟ هذا ما وقع في نفسه على كل حال. ولكنها لم تتلبث في المكان وانصرفت مع صويحباتها اللواتي لم يفتهن الحوار ومغازيه، ولبثن يتبادلن الابتسام على حذر.

تابعها بأنظاره حتى غابت، وقد عزم على أن يسأل عنها ويتتبع خبرها. فهي غريبة عن الديار لم يرها من قبل.

وقد شاءت الأقدار ألّا يبرح السوق حتى يختبر سيف الحديد بعد أن اختبر سيف العين. فما هي حتى سمع جلبة في موضع متنحٍّ من السوق، ورجل يصيح:

- ماذا أبقيتم لنا من أموالنا لنطعم أهلنا وصِبيتنا؟ هذا والله هو الحيف. أفكلما أدّينا لسيدكم اقتضيتم المزيد؟

كان رجلاً من أهل السوق يبيع الجلود المدبوغة، وقد وقف عنده حشّار بن هند مع رجاله، فهزّ له السوط مهدِّداً وصاح به:

- اسكت قطع الله لسانك. إنه سيدي وسيدك وسيّد كل هذه البلاد.

أجاب الرجل وقد طغى عليه الغضب حتى غفل عن العواقب:

- قد قلتها إذن...

ثم دار في مكانه يُسمِع الناس:

- ما نحن إلا عبيد ابن هند وإخوته وأمّه.

صاح به الحشار من جديد:

- يا ابن اللخناء... من أنت حتى لا يسعك ما يسع الناس.

أجاب الرجل:

- الظلم أضيق من أن يسع أحداً. والظلم مرتعه وخيم.

هنا جذب الحشار الرجل بغلظة من أعلى ثوبه:

- أَوَقد بلغ بك أن تتوعّد يا ابن اللعينة، والله لأجْعلنَّك للناس مَثَلاً.

ثم عاجله بلطمة في صدره فأوقعه أرضاً. وانهال عليه مع أصحابه بالسياط، بينما أخذ الرجل يصيح:

- يا لبكر... يا لضُبَيْعة... يا ليَشْكُر...

لم يحرّك أحد من الناس الذين تجمعوا حول المكان ساكناً، بينما تابع الحشار وأصحابه ضرب الرجل وركله. وفجأة اندفع طرفة مخترقاً الجمع وهو يصيح:

- أيديكم عنه لا أمّ لكم.

دفعهم عنه ووقف بينه وبينهم متأهباً، وتابع:

- أفما سمعتموه ينادي بكراً! فكأنكم بعد ذلك تضربون بكراً.

هز أحد رجال الحشار سوطه في وجه طرفة، فاستل سيفه بسرعة خاطفة ووضعه في نحره:

- افعل نشدتك الله، لأُنفِذ هذا من نحرك!

أومأ الحشار لصاحبه أن يتراجع. فهذا طرفة بن العبد البكري، في الصدر من بيوت بكر. ولكنه خاطب طرفة:

- ليس هذا بالعمل الحكيم يا ابن العبد.

- منذ متى صارت الحكمة والخنوع صنوين؟

- حين يأمر عمرو بن هند، ملك الحيرة.

- هذه هَجَر وليست الحيرة.

- ولكنها في طاعة الملك.

- في طاعته ما أنصف ولم يخفر لنا ذمّة.

- أتتهمه بالبغي؟

- عملك هذا يتهّمه.

- لن يسرّه أن يبلغه هذا عنك.

- ما كنت لأبتاع سروره بسقوط مروءتي.

أشار الحشار بازدراء إلى التاجر الذي كان قد وقف على ساقيه، وقال لطرفة:

- وتُهدِف نفسك لغضب ابن هند من أجل هذا؟ إنه ليس من أصلاب بكر... إنما هو أحد مواليكم.

أجاب طرفة:

- من أين جئت يا أخا تميم؟ ألا تعرف حق الجار على من أجاره وصار فيهم كبعضهم، يحفظونه بما يحفظون به أبناءهم. وإلّا فهي سبّة الدهر. وقد سمعته ينادي بذلك الحق.

سكت الحشّار وقد أفحمه طرفة بما يعلم أنه حق. ولكن طرفة أحب أن يزيده حرجاً، فتقدم منه وقال على سمع الحضور:

- أنت أجدر الناس بأن تلتمس لنفسك عملاً آخر غير هذا، بعد الذي كان من عمرو بن هند في قومك. ألم يُحرّق مائةً من تميم؟ فكيف يطيب لك بعد ذلك أن تكون سوطه؟

ازداد الرجل حرجاً، وقال بصوت خفيض متلعثم:

- كثرت تميم، وتفرقت أحياؤها! وذلك حيّ انفرد برأيه وعمله، ولم يشاور فيه غيره، فيحتملوا معه.

ثم أومأ لسائر أصحابه فانصرفوا معه. وإذ غابوا أقبل تاجر الجلود على طرفة:

- أعزك الله يا أخا بكر... أما والله لقد كفيت ووفيت الذمّة.

هنا اختلطت أصوات الحشد بالثناء على طرفة، ولكنه أسكتهم إذ قال مؤنباً:

- وأنتم؟ أفما كان في وسعكم أن تذبّوا عن جاركم إذ رأيتموه يُضرَب ويُهان، وهو في جواركم، فتذبّوا بذلك عن أعراضكم؟!

ومضى مبتعداً، بينما طأطأ القوم رؤوسهم، لا يريد أحدهم أن ينظر في وجه الآخر.

حين دخل بيته فوجئ بعمّه أبي الربيع في المجلس، مع وردة ومعبد والخرنق والمتلمّس، وقالت وردة:

- هذا عمّك ينتظرك منذ وقت.

خاطبه طرفة بنبرة مشوبة بالتهكم:

- عمّي... شقيق أبي... ما الذي حملك إلينا هذه الساعة؟ هل ذكرت رحمك فينا فجئت ترعى ذمّة أخيك في أهله؟ ما اعتدنا ذلك منك؟

أرسل أبو الربيع نظرة إلى وردة، فقالت:

- أنصت إلى عمّك أيها الفتى.

قال:

- إني منصت...

قال أبو الربيع:

- دعاني ربيعة بن الحارث العبدي، عامل هجر، إليه. وشكا لي فعْلتَكَ بحشّار بن هند في السوق!

ثم كرر العبارة الأخيرة ليؤكد خطر الموقف:

- حشار ابن هند... ابن هند يا طرفة. قد علمت من هو، فكيف...

قاطعه طرفة:

- علمت... علمت... تقول فعْلتي. فهل ذكر لك فعلة الحشار في أحد موالينا؟

قال أبو الربيع:

- ونحن وموالينا في طاعة ابن هند. وكان يسعه ما وسعنا. فهل ندفع عنه ما لم ندفع عن أنفسنا؟ والمولى على شرط من نزل فيهم، فإن ضاق بذلك فارقهم وخرج على وجهه، وانفرد بعواقب عمله.

أجاب طرفة بنبرة جادّة هذه المرّة:

- وأنا مثله... قد فعلت ما فعلت، وأنفرد بعواقب عملي.

قال أبو الربيع دون أن يتروّى:

- ليت الأمر كذلك! لست مثله... أنت طرفة بن العبد.

أطلق طرفة ضحكة ساخرة وقال:

- هذا ما ظننت. لم تأتِ مشفقاً على ابن أخيك، وإنما تخشى أن تؤخذ أنت ورهطك بذنبي!

دارى أبو الربيع حرجه، ثم قال:

- فليكن... لماذا تظنّ أن عامل ابن هند قد راجعني فيك من دون الناس؟

أجاب طرفة محافظا على نبرة التهكم:

- لأنك عمّي ووليي من دون الناس.

ردّ أبو الربيع:

- هو ذاك، أحببت ذلك أم كرهته.

- ألم تكن عمّي ووليي حين عدوت على حقي وإرث أبي؟

- قد قسمت لكم.

- بعض حقنا لا كلّه، ولم تفعل حتى سللت عليك لساني.

- ذلك أمر قديم، ولنا من أمرنا ما نستقبل.

- بل آخر الأمر معطوف على أوّله. تجرؤ على حق أبناء أخيك، وتنزل عن حقك لعمرو بن هند؟ ثم تلومني في أني انتصرت لأحد موالينا كما ينبغي أن تفعلوا جميعاً!

هنا اقترب أبو الربيع منه وقد تغيّرت ملامحه وتحدّث بأسلوب أكثر ليونة:

- أنصت يا ابن أخي... على غير ما تظنّ فإني والله أخشى عليك كما أخشى على قومك. فلا تُهلِك نفسك وتهلكنا معك. وقد حمل عامله عليك ما كان من تحريضك القوم حتى تداركوا الأمر. ثم

كان منك هذا. وقد ضجر العامل منك. يقول: لا يسعني السكوت إذا كثر هذا، فبلغ ابن هند، فأُهْدِف نفسي لغضبه إلّا أن أسبق بالعقوبة، فكفوا يد صاحبكم قبل أن أكفّها بيدي. وإن كنت ترى نفسك واحداً فليس هذا ما يراه ابن هند. وإن كنت تتهم قومك وتلحوهم وتستوحش منهم وتراهم مغرماً وعبئاً وترغب في التوحد عنهم، فاسأل نفسك: لماذا سكت عنك عامل ابن هند حتى الآن، وما الذي أنجاك من بطش الحشّار ورجاله وهم ذوو بأس وقوة، بعد أن سللت سيفك ووضعته في نحر أحدهم؟ ولو فعل ذلك المولى الذي انتصرت له لأهلكوه في موضعه. ما أنجاك إلّا أنهم ذكروا قومك ومكانك فيهم. فكّر في هذا قبل أن تتمادى بعد اليوم!

قال ذلك وخرج. والتقت عينا طرفة بعيني أخيه معبد الذي بدا أنه يوافق عمّه. أما وردة فاكتسى وجهها بملامح الإشفاق على ولدها. أخذت تمسح برفق على ظهره وكتفه، وقالت بصوت المحب المشفق:

– قد صدق عمك، وإن كنتُ له كارهة! نشدتك الله لا تفجع أمك بك.

أطرق متفكّراً، ولم يجد ما يقوله، وقد ازداد حيرةً وضيقاً بنفسه وقومه وبكل ما يحيط به.

* * *

(10)

سلمى التميميّة... ذلك كان اسمها... وقد أرْبَعَ حيها في جوار بكر في ذلك المكان من هَجَر...

أليس من مفارقات الدهر أن يجتمع عليه في اليوم نفسه، وفي السوق نفسه سيفان من تميم: سيف الحشّار التميمي الغليظ، وسيف العين الكحيلة لفتاة تميميّة لم يستطع أن يطردها من مخيلته، حتى تتبع خبرها وعرف منازل قومها. ولقد وقع في نفسها منه مثل الذي وقع في نفسه. وقد أبدت بذلك في سهومها وشرود تفكيرها، حتى همست إحدى صويحباتها:

- قد بلغ والله البكريّ من نفسك.

تنبهت ملامحها وقالت معترضة:

- كيف يكون هذا ولم يقف معي غير هنيهة!

أجابت صاحبتها دعد:

- العشق كالموت، إذا حكم القضاء أجبناه على غير اختيار.

قالت سلمى:

- تباً لك، كيف تجعلين الموت والعشق صنوين.

- ذلك حال العرب... يعيشون أو يموتون بين سهم القتال وسهم العشق. وقد يجتمع عليهم السهمان. أليس هذا ما قاله لك؟

فإن قالوا شعراً افتتحوا بالنسيب والغزل، قبل أن يخرجوا منه إلى الفخر أو المدح أو الهجاء، ومدار ذلك كلّه خبر السيف والجود. قلبٌ شجاع وقلب عاشق.

أما القلب العاشق فقد تعرّضت لشيء من نفحاته وتلميحاته عند تاجر الأقمشة. وأما القلب الشجاع، فقد رأت بعض تجلياته حين اعترض الحشار ورجاله ودفع عن الرجل المسكين، دون أن يدرك أنها شهدت الموقف عن بُعد. فحين كانت على وشك الخروج من السوق سمعت تلك الضوضاء، فتوقفت وعادت تنظر، فأعجبها ما رأت.

ولكن لماذا تشغل تفكيرها به ولم يكن بينهما غير موقف عابر كما تعبر غمامة صيف. ولعله قد نسيها في يومه ذاك. بل ربما كان تعرّضه لها من مألوف طبعه وعادته في العبث والتحبب والتغزّل والتّظرف مع كل من يصادف من الجميلات.

ولكنها لم تكن غمامة صيف، وإنما كانت غمامة غبار مقبلة تسبق جواداً وفارساً مقبلاً إلى حيث كانت تجلس في نزهة مع صويحباتها على بساط في رقعة من الأرض المربعة بالقرب من مجرى ماء مما خلّف الشتاء المنصرم. اتجهت أنظارهن إليه حتى اقترب وانجلى الغبار كاشفاً عن الفتى... طرفة بن العبد.

وقف غير بعيد، وسلّط نظره على سلمى التي غالَبَتْ ابتسامة فرح كادت أن تشي بها، والتمعت عيناها ببريق أخّاذ. ودارت ذلك كله بنصف إطراقة لم تحجبه عنها. وإذ ترجّل عن جواده وهَمَّ أن يمشي نحوهن، عجلت إلى حشية قريبة منها وقذفت بها إليه وقالت:

- مكانك حيث وقَعَت؟

نظر إلى الحشية التي وقعت على بُعد مناسب منهن، وقال مبتسماً:

- ليس هذا بالعدل ولا بالنَّصَف!

قالت بنبرة اجتهدت أن تكون حازمة:

- على حكمي، أو فَدَع.

نزل جالساً وهو يقول:

- هذا هو الحكم الذي لا أردّه وإن كان جائراً. ومن يَدَعُ وجهاً إذا أضاء في هَجَر، تنوّره الساري في تهامة.

أفلتت صاحباتها ضحكات مكتومة. وقالت سلمى:

- أبِمِثْل هذا تستميل النساء؟ سمعت أنك زير.

ازدادت ملامح وجهه انبساطاً وقال:

- إذن، فقد سألت عني!! هذا والله خير ما طلعت به عليّ شمس هذا النهار. أما ما قيل لك عني فمقالة الواشي وطَفَح الحاسد.

قالت:

- دع عنك هذا، لم يبلغ ما بيننا بعد أن يسعى به الواشي.

ردّ بسرعة مشدِّداً على الكلمة:

- بَعْد!

تنبهت لمغزى الكلمة التي خرجت من فمها دون تدبّر، فأطرقت حياءً، بينما استأنف قائلاً:

- حتى لو كان فيما قيل بعض الصدق، فعُذْري أني كنت أطلب مثلك بين النساء فلا أجدها، ولو وجدتك قبلهن لانقطع الطلب، ومعه تلك التهمة!

هذا فتى لا يعجزه الجواب الحَسَن والمخرج الجميل، فكيف لا يزيدها ذلك إعجاباً به، أعقبه تعلق وهوى مع توالي الأيام!

* * *

ولكن، هل تعلَّقَها هو كما تَعَلّقَتْه؟

لقد مالَ إليها منذ اللقاء الأول القصير، ولكنه فُطِر على حب النساء. وما رأى جميلة إلا طلب وصلها لو استطاع حتى اشتُهِر ذلك عنه. وقد يخاطر فيه حتى يلامس حدّ الريبة، ويهدف نفسه لغضب القوم. ولكنه لم يكن ليبالي بالعواقب، وكيف يبالي بعواقب المتعة من لا يبالي بعواقب التحدّي لسلطان ملك الحيرة وعامله، ولقبيلته أيضاً؟ وذلك شأن من سلّم لمقادير الموت الذي يأتي على غير موعد مضروب وبكل الأسباب المشهودة وغير المشهودة. وهل يصرف الناس عن مسالك الخطر إلّا الحرص على الحياة والمال والولد؟ وليس عنده شيء من ذلك.

لو سئل في أول أمره مع سلمى التميمية لحارَ في الجواب. أهو العشق لامرأة بعينها أم غاية الأنس بالنساء، وقد استوحش من الرجال؟

لم يدلّه على حبه لها إلّا طول التفكير بها وحضور صورتها في مخيلته في كل وقت وفي كل شأن يكون فيه، وأنه إذا استذكر أبياتاً من شعر الغزل تمثّلها دون غيرها. وإذا حالَ بينها وبين ميعاده معها

مانع، ضاقت به الدنيا وجعل يتحسس أخبارها، وربما تلطم بلثام وجالَ حول حيِّها، أو تذرّع بطلب الماء من بعض الأخبية القريبة من خبائها وهو يجيل بصره لعله يراها. فإن لم يرها ورأى إحدى صاحباتها خاطر بالسؤال. ولا يهدأ له بال حتى يعرف خبرها والذي منعها من لقائه، حتى تواطأ وإياها على أن يكون بينهما رسول منه أو رسول منها. ولم يكن يمنعها من ميعاده أحياناً إلّا وعكة تصيبها، أو الخوف من الرقيب. وكان حريصاً مثل حرصها على دفع الرِّيبة، فلا تخرج إلا مع بعض صاحباتها أو خادماتها. وإذا جلس أو وقف معها آثر أن يجعل بينه وبينها مسافة. وكل ذلك من دلائل العشق لا مطلب اللهو والعبث اللذين اعتادهما. وهي على كل حال حرة كريمة البيت والنسب.

فقد كان أبوها الشيخ من سادة حيِّه وأغنيائهم، ولم يكن له من الولد غيرها وغير أخيها الأكبر عُبادة. فقد ذهب سائر أولاده في حروب العرب. وكان يحب سلمى حبّاً عظيماً ولا يمنعها شيئاً تطلبه، وأقام عليها من الخدم من ينهض بشأنها ويكفيها حاجاتها.

ولكن، ما كان لتلك اللقاءات أن تدوم طويلاً دون أن يُعرَف خَبرُها. ففي أحد الأيام دخل عليها أخوها عبادة عابساً منقبض الملامح، ولم يبتدرها بالتحية على مجرى عادته، فابتدرها بالسؤال من فوره:

- ما خبر ذلك الفتى البكري؟

رفعت رأسها عن المرآة التي كانت تمتشط أمامها وقد اعتراها الوجوم وقالت بصوت هادئ غير مضطرب:

- والله لا أكذبك. إنه لفتى شهم حر كريم، وهو من بيت عز وسيادة، وقد أعجبني منه كالذي أعجبه مني. ولا ألقاه وحدي في خلوة، وإن كنت تسأل سؤال العارف، فإنك لتعلم أنه ليس بيننا ما يريب.

ردّ بسرعة:

- عدمتك. وهل كنت أصبر على شيء من هذا لو علمتُ أن بينكما ما يريب؟

ظهر الارتياح على وجهها، ولكنه أردف:

- ولكني سألت عنه، فعلمت أنه فتى عابث كثير اللهو والشراب حتى أتلف جُلّ ماله. وهو مغاضب لقومه، يتحاشاهم ويتحاشونه. ومن كان كذلك فلربما خرج مما لا يريب إلى ما يريب.

قالت:

- ما أحسبه يفعل. وقد يصبو الفتى مع من لا خير فيها ولا حسب ولا نسب، فيعلم أنها تجاريه. ويعلم مقام الحرّة الكريمة فيقف عنده. وأنت يا عبادة، قد صبوت ما صبوت ولم تكتمه، بل تفاخرت به. ثم رشدت إذ دعا داعي الرشاد. وليس أدعى إلى رشاد الرجل من الفتاة العفيفة من بيت كريم. وقد عرف الفتى البكري ذلك مني، ولو خرج إلى الريبة لقطعت يده على كل حال.

ردّ قائلاً:

- تقطعينها ثم لا تقطعين ألسنة الناس. فقد وقع القول عندئذٍ ومضت فيك المقالة. ولكن تقطعينها من الآن، فإن كان صادق المودّة

راشد العقل، جاءنا خاطباً في رهط من وجوه قومه، فننظر في أمره، فإن رأينا أن نزوجه، ساق لك المهر الذي يكافئ مقامك. ولا أظنه يقدر على ذلك بعد الذي علمنا من سَرَفه ومخالفته عن أمر قومه.

همّت أن تقول شيئاً فقاطعها بحزم:

- ذلك قبل أن تُشْتَهَري به، فقد علمتِ أن العرب تكره أن تزوِّج المرأة لمن اشتُهرت به، خشية أن يظن الناس أنها زُوِّجت له على أمر مريب كان بينهما!

أطرقت وقد اكتسى وجهها بملامح الشرود والتفكير. واقترب منها عبادة وقد تحوّل وجهه إلى العطف والمحبة وقال وهو يربت على كتفها:

- يا أخيّة... والله إنك لأحب الناس إليّ... ولولا ذاك لما خضت في هذا الحديث معك، ولقضيت فيه دون أن أراجعك، ولم أترك فيه باباً للنظر على الشرط الذي ذكرتُه. فحتى لو كان خير الفتيان وجاءنا خاطباً من أول أمره، فإنا لا نحبّ أن نزوّج فتياتنا في قوم آخرين فتكون غريبة فيهم. والغريب مُضَيّع. وهذه الديار ليست لنا بدار مقام، ولسوف نرتحل بعد حين. ولا يهون عليّ ولا على أبيك أن تغيبي عنا وتخلو الحياة منك. ولكني تركت باباً لأني رأيت الفتى قد وقع في نفسك، فلا أريد أن أكسر قلبك، إلّا أن يعجز عن شرطنا، ويظهر منه ما يدعوك أنت للانصراف عنه ونسيان أمره. هل تعين قولي يا أُخيَّة؟

هزت رأسها هزة خفيفة دون أن تفارق إطراقتها وشرودها. ماذا عساها تقول وقد ألزمتها حجة أخيها المحب؟ ولكن، هل تُلْزِمُ عاشقها الشاعر؟

لم تأت لميعادهما، وجاءت خادمتها لتقص عليه خبرها مع أخيها. شعر بطنين في رأسه، وجلس وحده على الأرض يفكّر. ولأول مرة يواجه نفسه بالحقيقة. لم تخطئ ولم يخطئ أخوها. فما الذي يريد العاشق من معشوقته إن كان عاشقاً حقاً وصادقاً حقاً؟ وما نهاية ذلك العشق إن لم يكن الزواج؟ لماذا كان يتجنّب التفكير في هذا الأمر قبل الآن؟ وما عساه يفعل وهو مخاصم لقومه فلا يسعه أن يسوقهم إلى أن يخطبوا له، وهو يعلم أنه لا يسعهم أن يشهدوا له عند قوم الفتاة، وما عرفوه إلا لاهياً عابثاً مخالفاً لهم. وإنّ وفد الخطبة وشهادتهم للخاطب بمثابة الضمان الذي يلزمهم عند قوم الفتاة! وحتى لو كان هذا فمن أين يأتي بالمهر الذي يكافئ منزلتها وقد أهلك ماله بين لذاته وحاجة الفقراء الذين اعتادوا قِراه وعطاياه فتكاثر عليه السؤال؟

لم يشعر بالندم على ما فاته من أشراط الزواج من فتاة لم يحب قبلها فتاة على كثرة صبواته. فإنما يندم الإنسان على ما كان يمكن أن يتجنبه من طيش الشباب وجهالاته. أما هو فقد كان يستجيب لطبيعة متأصلة فيه تنفر من الانصياع لأحكام الجماعة من حساب نفسه المجبولة على الحرية والتفرد والانطلاق على سجيتها. فكيف إذا كانت الجماعة قد تخلّت عن واجباتها الموروثة في حفظ أفرادها ورضيت بالانصياع لحكم ملك جبار طاغية يحكم في أموالها ودمائها، ثم افترقت فيما بينها أغنياء وفقراء. فكيف يسوّد على نفسه من صاروا عبيداً لعمرو بن هند؟ أما المال فقد أنفق كثيره في سدّ ما أخلّ قومه وضيعوا من ثغور الحقوق، وعلى متع أراد أن يسبق بها الموت المتربّص الذي خطف أباه بلا مقدمات ولا مواعيد في عز شبابه!

لا، ما كان ليكون غير الذي كان. ولو رجع به الزمن لما غيّر شيئاً ليفوز بحبيبته ويخسر نفسه. ولْيُسَلِّ النفس عنها بأن مثله لم يكن ليصلُح للزواج والولد وما يقتضيانه من الركون إلى ما يركن إليه سائر الناس. وإذا كان العشق مما لا يمكن دفعه ومما رُكِّب في جِبلّة الإنسان، وأنه يضيء القلب والخيال ويسمو بالعاشق إلى منازل السحاب والنجوم والشعر الخالد، فلقد يكون الزواج آخره! فالعشق في جوهره لهفة وشوق وطلب، فإذا انقضت هذه كلها لم يبقَ منه إلّا التذمم والمروءة والمودة في أحسن الأحوال. وهي مما يبذل الرجل الشهم لكل من كان من أهله وأهل مودته!

بلى، لعله قد خُلق للعشق لا للزواج، وإن كان قد أخلّ بشيء مع نفسه وسلمى، فهو أنه بسط حبلاً لا رجاء منه، إلا أن يورثهما مرارة موجعة. وأشد ما في الأمر أن تظن الآن أن امتناعه عن خطبتها دليل على عبثه، وأنه لم يكن صادق الحب.

ولكن لئن كانت هذه حججه لنفسه، فإن ذلك لم يحرّره من الشعور بالألم والحزن على الفراق، ومن الرغبة الملحّة في أن يراها لمرة واحدة فقط، قبل أن ترتحل وقومها من عالمه، وهي تظنّ به الظنون!

تواطأ عليه الشوق والخمر، فأخرجاه إلى حيّها وقد تلطّم بلثام حتى وقف على باب خبائها ونادى بصوت خفيض أن تخرج إليه، فلما لم تجب رفع صوته بالنداء، وجاءه صوتها من الداخل تنشده الله أن ينصرف قبل أن يفطن إليه الحيّ فيفضحها ونفسه. ولكنه كرر النداء. وما هي حتى اندفع نحوه نفر من الرجال على رأسهم أخوها

عبادة، وأحاطوا به. ثم دفعه عبادة في صدره بقوة فأوقعه، وقد أخلت الخمر بساقيه، فانكشف وجهه. واستلّ عبادة السيف، وقبل أن يفعل به شيئاً وصل أبوه صائحاً:

- على رسلك يا عبادة... لا تفعل.

قال عبادة:

- ألا ترى يا أبتِ ما...

قاطعه أبوه:

- أرى، ولكل داهية تدبير... أما الآن...

نظر إلى طرفة الذي جاهد أن يقف على ساقيه، وقال:

- اغرب الآن عن وجهنا أيها الفتى، وترقب منا نبأً عظيماً دونه الدواهي.

مضى طرفة متعثراً يجرّ ساقيه. ودخل الأب وولده خباء سلمى التي وقفت ترتجف وابتدرتهما بالقول بصوت مضطرب:

- قد علم الله ما كان ذاك على علم مني ولا ميعاد، ولا خفرت لكما ذمة ولا جلبت عاراً.

قال عبادة بغضب جارف:

- ولكنه جلبه علينا للأمر الذي كان بينكما... فأنت قسيمه في الذنب. أهذا هو الفتى الذي دفعتِ عنه التهمة ووقع في نفسك؟

ردت باكية:

- لا أدري ما الذي دهاه حتى فعل ذلك.

قال عبادة:

- لوددت لو أنفذتُ سيفي فيه، لولا اعتراض أبينا.

هنا تدخل أبو عبادة لأول مرة وقال بصوت هادئ:

- ما هكذا تورد يا سعد الإبل، فلو قتلته لثبت العار... ولا أحسبه كان يجرؤ على فعلته لولا تلك الخمر التي خالطت عقله... وذهبت بلبّه، وقد ظهر أثرها عليه. أما أختك فصادقة مُصدَّقة.

قال عبادة:

- ونتركه بعد الذي فعل، فيعيدها كرَّةً أخرى، أو يأتي بما هو أدهى منها؟

هز أبوه رأسه هزّة المتفكر المتأمّل، وقال:

- بل نقطع دابره.

* * *

لم يدر سادة بكر ما جاء بأبي عبادة في نفر من قومه إلى ناديهم حتى أسمعهم الخبر. ثم قال منذراً متوعِّداً:

- ولولا العهد الذي عقده عمرو بن هند بيننا وبينكم لما أنذرناكم حتى ملأناها عليكم خيلا ورجالاً،وجعلناها يوماً من أيام العرب. ولقد علمتم من نحن، وقومنا يملأون السهل والوادي، والمنيّة ولا الدنيّة. ولكننا نجعلكم على الخيار، فإما ضربتم على يد صاحبكم، فكفيتمونا وكفيتم أنفسكم، وإما خلّيتم بيننا وبينه، وإلّا حمّلناكم غرمه.. فانظروا رأيكم.

ثم خرج من فوره في رهطه، مخلفاً القوم كأن على رؤوسهم الطير، حتى قطع قيس بن خالد الصمت متلفتاً إلى أبي الربيع، عم طرفة:

- أرأيتم ما جلب علينا فتاكم؟ أما راجعناكم فيه مرّة بعد مرّة، وسألناكم أن تكفوه قبل أن يجني علينا بعمله؟ والآن ما أنتم فاعلون به وقد بلغ السيل الزبى؟

نفخ أبو الربيع وهو يتلفت يميناً وشمالاً:

- لو كان ينفع معه الكلام. ولكنه لا يطيع إلا نفسه. وقد أعياني وأعمامه... وإني أول من يبرأ منه ومن طيشه.

قال قيس بن خالد:

- إن كنتم تبرأون من عمله، فإن الناس لا يُبرئونكم، ثم لا يبرئوننا معكم إن كانوا من غيرنا. وإن كان الفتى لا يطيع إلّا نفسه كما تقول، فكيف يعصي أمرنا ثم يُحمّلنا جريرته؟ لا أرى لكم إلّا أن تخلعوه أو تخرجوه من ديارنا.

* * *

حين اختلى أبو الربيع بأخويه في داره، عرض عليهما الرأي ولكن المرقّش لم يبدِ حماساً، وكان أكثرهم عطفاً على طرفة، فقال مستنكراً:

- نخلع ابن أخينا ونُعلِن بذلك للناس، حتى يذيع الأمر بين العرب؟ كأننا نسلمه إلى حتفه. فإن الخليع إذا طلبه أحد لم يبالِ أن

يقتله وقد أَمِنَ من أن يثأر به قومه. فهو دم مباح لا عاصم له. فهل هذا ما نرضى به لابن أخينا؟

أجاب أبو الربيع:

- نرضى له ما رضي لنفسه، ولا نكون أحرص عليه من حرصه على نفسه. فإن خلعناه وشاء السلامة لم يهدف نفسه للغائلة، ولم يُقدِم على حتفه وهو يعلم أنه لا عاصم له من قومه.

هز المرقش رأسه يميناً وشمالاً، ثم قال:

- أما والله إنه لأشعَر من أنجبت بكر، وهو بعد في مقتبل عمره... وإني لشاعر وأعلم الناس بالشعر، ولا يضرني أن أقول إن شعري، على سنّي،لا يبلغ شيئاً من شعره. فكيف تضيّع بكر شاعراً مثله يمكن أن تفاخر به العرب جميعاً. وما زالت القبائل إذا نبغ فيها شاعر احتفت به وقدّمته...

قاطعه أبو الربيع:

- ذلك حين يكون لسانها الذي ينطق عنها وينافح عن حقها... وهذا فتى ما زال لسانه علينا لا لنا، يهجونا به بدلاً من أن يهجو به عدواً لنا، فما حاجتنا إليه وإلى شعره؟

قال المرقش في لحظة بوح صادقة كأنه يخاطب نفسه:

- ليس بيننا غريب فنكتمَ الحق والحقيقة. إنما يهجونا بما يكره أن يرانا عليه، ضناً بإرث آبائنا وثغور الحقوق التي فرطنا بها، وأن يرانا نتصاغر أمام ملك الحيرة، ونتركه يرتع في مالنا ودمائنا. وما يريد بذلك إلّا أن يبعث فينا الحميّة التي ساد بها آباؤنا وعلا فيها صيتنا... فهو يمدح الماضي بذمّ الحاضر.

قال أبو الربيع متضجراً:

- إن لم يعجبك ذلك الرأي، فابسط لنا خيراً منه.

هز المرقش رأسه وبدت عليه الحيرة:

- لا أدري، لا أدري... ولكني أعلم أني لا أحب ذلك الرأي. فأخرجوني من هذا الأمر، واحكموا برأيكم. والنصيحة عندي أن تتروَّوْا فيه قبل أن تقطعوا بأمر دونه دم ابن أخيكم. ولئن كان الناس يؤاخذونكم به الآن، فلعلهم أن يأخذوها عليكم إذا ضيعتموه وغاله غائل بخلعكم إياه.

قال ذلك وخرج من فوره، مخلفاً أخويه يتبادلان النظر حائرين لا يهتديان سبيلاً.

ولكن الحيرة لم تطل كثيراً. فبعد يوم واحد فقط، دعاهم عامل هجر والبحرين إلى مكانه، فوجدا معبداً قد سبقهم إليه، وعنده صاحب الحانوت الذي يسمر فيه طرفة مع أصحابه، والمرابي أبو حسّان. وكان طرفة قد غرم لهما مالاً كثيراً عجز عن أدائه بعد تطاول الأجل. فرفعا شكاتهما إلى العامل. وبعد أن بسط لهم العامل المسألة قضى بأن يؤدوا غرم فتاهم بالسويّة والرضا، وإلّا انتزعه منهم كرهاً. فهم أولياء الدم والمال، مع عجز صاحبهم عن الأداء.

ما كان لهم أن يمتنعوا. قضي الأمر إذن. كاد قوم تلك التميمية أن يطلبوا دمه أو دماءهم معه. والآن يُلْزِمُهم غُرْمَه بالمال. فما الذي يبقى لهم وقد جعلهم على الخيار: فإما أن يذهب بهم، وإما أن يذهب عنهم!

* * *

(11)

ومـــا زال تشـــرابي الخمـــور ولـــذّتي
وبيعـــي وإنفـــاقي طريفـــي ومتلـــدي

إلى أن تحـــامتني العشـــيرة كلهـــا
وأُفْـــرِدتُ إفـــرادَ ا البعـــير المُعَبَّـــدِ

ألّا أيهـــا اللائمـــي أشـــهدَ الـــوغى
وأن أنهـــل اللـــذاتِ، هـــل أنـــت مُخْلـــدي؟

فـــإن كنـــت لا تســـطيع دفـــع منيتـــي
فـــدعني أبادِرْهـــا بـــما ملكـــت يـــدي

ولـــولا ثـــلاثٌ هنـــا مـــن عيشـــة الفتـــى
وجـــدّكَ لم أحفِـــل متـــى قـــام عُـــوّدي

فمـــنهن ســـبقي العـــاذلاتِ بشَـــربَةٍ
كُمَيْـــتٍ متـــى مـــا تُعْـــلَ بالمـــاءِ تُزْبِـــدِ

وكـــري إذا نـــادى المُضـــافُ مجنّبـــاً
كَسِـــيْد الغضـــا نَبَّهْتَـــه المتـــورّدِ

وتقصـير يـومِ الـدّجْن والـدَّجن معجِـبٌ
ببهْنكَـــةٍ تحـــت الخبـــاء المُعَمَّـــدِ

كـــريمٌ يـــروّي نفســـه في حياتِـــه

ســتعلم إن متنــا غــداً أيّنــا الصّــدِي

أرى قـــبر نحّـــام بخيـــلٍ بمالِـــه

كقـــبْرِ غـــوّيّ في البطالـــة مفســـدِ

أرى المــوتَ يعتــام الكــرام ويصــطفي

عقيلـــة مـــال الفـــاحش المتشـــدّدِ

فلــو كنــتُ وغْــلاً في الرجــال لضــرّني

عـــداوة ذي الأصـــحاب والمُتَوحّـــدِ

ولكـــن نفـــى عنـــي الرجـــال جـــراءتي

علـــيهم، وإقـــدامي وصـــدقي ومُحْتَـــدي

أرى المــوتَ أعــداد النفــوس ولا أرى

بعيــدا غــداً، مــا أقــرَبَ اليــومَ مــن غَــدِ

لعمـــرك مـــا الأيـــامُ إلّا مُعـــارَةٌ

فـــما اسْـــطعَتْ مـــن معروفهـــا فتَـــزوّدِ

اغتنام اللذات قبل الفَوْت، وإهلاك المال قبل هلاك النفس، وقهر الموت الذي يأتي على غفلة ويزورك بلا دعوة، بالموت الذي تبادره بيدك وإرادتك بإتلاف النفس في الخمر والنساء ومجازفات النزال! ولو كانت كلفة ذلك كله الغربة والاغتراب عن الناس بين نبذهم إياك وانتباذك إياهم. ذلك مذهبه الذي أقام عليه من دون

قومه، ونفثه في شعره الذي أراده صورة نفسه، لا صورة المدائح والمفاخر الكاذبة التي يريدها القوم.

كان يجلس في ظل النخلة المتنحية التي زرعها بيده مع أبيه لتكون خاصته، ثم يجعلها لكل عابر سبيل، لا يُمنَع من ثمرها أحد، حين أدركه خاله المتلمس هناك. وكان يعرف أنها ملاذه كلما زاد استيحاشه وأحب أن يخلو بنفسه. لم يرفع رأسه عن الأرض. وقف المتلمس صامتاً يرمقه، قبل أن يتحدث بصوت هادئ مشفق:

- أعلم ما في نفسك يا ابن أخت.

أجاب بنبرة التشكك:

- حقاً؟

قال المتلمس:

- أنت فعلت هذا بنفسك يا ابن أخت.

ردّ طرفة دون أن ينظر في وجه خاله:

- نعم... ولا ندم.

- من شذّ عن قطيعه أكلته الذئاب.

قال بلهجة غامضة وهو يرسل بصره في البعيد:

- إلّا أن يصير ذئباً!

تريّث المتلمس لحظات وهو يتأمّله قبل أن يستأنف:

- إني والله لأكره من قومنا ما تكره.

قال طرفة بنبرة مشوبة بالتهكم:

- حقاً؟ نعم، هجوت عمرو بن هند يوماً كما تُذكّر في كل حين.. ثم عدت تتفاخر أنه ضمَّك إلى ندمائه وعرَّضكَ لصلته كلما قدمت عليه!

- الريح العاصف تكسر العود الصلب، دون الليِّن الطريّ. هكذا علمتني صروف الدهر.

- إن صحّ هذا في الشجر فلا يصحّ عندي في البشر. إنما هي حكمة العاجز.

- نعم، إنني أتعرّض إلى صلة ابن هند، وأنا له مبغض. ولِمَ لا؟ أخذ منه بعض ما يأخذ منا.

- يأخذه قهراً من عامة القوم، ويأخذه بعضكم ذلًّا!

- قل ما شئت يا ابن أخت... ولكن الضرورة ملزمة حتى تنقضي. وقد ذهب مالُك...

قاطعه طرفة وقد رفع رأسه ينظر إلى نخلته مبتسماً:

- إلّا هذه! إلّا أني أوقفت ثمرها على الجائع.

استأنف المتلمس:

- فلو شئت خرجتَ معي إلى الحيرة، فتوصّلتُ بك إلى عمرو ابن هند...

انتفض طرفة لأول مرة وهبّ واقفاً:

- أُذِلّ شعري له لآكل به عنده؟ وما غاضبتُ قومي إلّا أنهم عَصوْا إرثَ آبائهم وأطاعوه؟ لولا مكانك مني لأغلظت عليك. لا واللات والعزّى لا أفعل، ما أطت الإبل وما حنَّتِ النّيبُ وما حملت عيني الماء!

قال المتلمس:

- على رسلك أيها الفتى! ما عساك تفعل بعد اليوم وقد ذهب مالك كلّه، وأنت تتعفف عن مال أخيك ومالي..

أجاب:

- أكتسبه اكتساباً.

- وكيف؟ تعمل بيدك لغيرك؟

- بل بسيفي!

- ماذا تعني؟

ثم بدا أنه قد تنبه إلى المعنى:

- تتصعلك مع ذؤبان العرب؟

أجاب طرفة:

- ألم تسمعني أقول: إلّا أن يصير الرجل ذئباً؟ نعم، ذئب رزقه في نابه، ولا شاة حتفها في لحمها.

- تتبدّى كأهل الوبر، وما ألفت العيش إلّا في أهل المدر؟ وتخالط ذؤبان العرب وفيهم الأغربة السود الذين لم يلحقهم آباؤُهم

بنسبهم ، وفيهم الفقير المعدم الذي لم يُغنِه أحد من قومه، وفيهم الخليع الذي شذّ عن قومه فخلعوه وتبرأوا منه؟

أجاب طرفة بنبرة حازمة قوية:

- أما الأغْرِبَة، فيكفي لهم فخراً أن منهم عنترة. وأما الفقير الذي خذله قومه فأميرهم كان عروة بن الورد، ونِعْمَ الأمير، وأما الخليع...

تريث لحظة ثم تابع وهو ينظر إلى خاله:

- أليس هذا ما اجتمع القوم يتشاورون فيه من أمري؟ وأنا الآن فقير، وأوشك أن أصير خليعاً... فقد اجتمع عليّ سبيان... ولكن ارجع إلى القوم فقل لهم: قد كفاكم طرفة ما تهمون به. فإنه يخلعكم ويضرب في أرض الله، يطلب أهلاً دونكم: أغربة وفقراء وأشقياء وخلعاء... وما الذي أرجوه من بقائي فيكم، أو أخشاه من مفارقتي إياكم، وقد صرتم أعجز من أن تحفظوا صاحبكم من خوف أو جوع... فقد استوى الحالان.. إلّا أن فراقكم أحسن... أخرج من الضيق إلى الرحب.. ومن المداهنة والنفاق إلى الصدق ومن مركب الذل إلى مركب الريح... ومن الوحشة من الناس إلى الأنس بالنفس والوحش والذؤبان... حيث لا تصل يد عمرو بن هند إلى أحد، وحيث الناس هناك ما زالوا هم الناس، ليسوا في حكم ملك الحيرة، وما هم قطيعاً وأقياناً له ولرهطه... في بيداء واسعة وسع النفوس الحرّة، لا يكل فيه البصر، ولا يرتد فيها النظر.. وأخبية مشرعة للرياح الأربع.. وهذا أنا... هذا أنا... لا ما تدعوني إليه يا خالي! ولسوف أثبت لك وللقوم أن مثلي لا يحتاج إلى غير همّة نفسه

ليصنع مجداً مؤثّلاً، ويكتسب مالاً عظيماً لم يرثه عن أب أو جدّ، ثم يسدّ به ما قد أخلت به العشيرة كلّها! وإن غالني غائل، فبيدي لا بيد عمرو! ميتة ماجدة أو حياة ماجدة... وليس وراءهما شيء!

* * *

لم تُجْدِ دموع أمه وأخته في أن تثنيه عما عزم عليه من الرحيل. وآثر أن يخرج براحلته دون أن يودّعهما خشية أن تضعف نفسه.

وإذ خرج من القرية وجد نفسه يعرّج على منازل حيّ سلمى وقد ارتحلوا منذ يومين فقط... غابت الخيام والأخبية وثغاء الشياه ورغاء الإبل وصخب الأصوات... ولم يبقَ إلّا آثارهم تلعب فيها الريح.. فتلك مرابض الإبل ومرابط الخيل... وتلك حجارة الأثافي حيث توضع القدور فوق الحطب المشتعل.وتلك آثار البيوت الممهّدة، متباينة في سعتها. وتلك مواضع الأوتاد التي تُشَدّ إليها حبال القباب والأخبية، والعُمُد التي تقوم بها.

أخذ يجول في المكان براحلته وبصره وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة شاحبة تجمع بين تعبير الحزن والراحة والتأمل في مفارقات الحياة. كان هذا حمى ممنوعاً في الأمس، لا يستطيع أن يجول فيه بلا قيد وسؤال ورقيب. وهو الآن بعد ارتحال القوم عنه مباح لكل عابر. ولكنه بدون أهله يبدو موحشاً يبعث على الحزن، ويوقد الشوق، حتى ليعملُ خياله على بعث صور الناس فيه وحركة الحياة وأصواتها. وكان في الأمس يتمنى لو كان بوسعه أن يخفى حتى يصل إلى حبيبته ويناجيها بأشواقه وقد خلا المكان من الآخرين.

فهل تغيب حريته بحضور الناس، وتحضر بغيابهم حين تفقد معناها وتورث كآبةً وشوقاً وحنيناً حارقاً موجعاً؟ هل يجب أن يشقى بهم ويشقى بدونهم؟!

هنا كان خباء سلمى... بدون سلمى... وبوسعه الآن أن يدخله ويناجيها غائبةً ويتصور مطارحها، إذ كان ذلك حرماً ممنوعاً من قبل! فلينشد متفجعاً متأمّلاً:

أتعــرفُ رســم الــدار قفــراً منازلُــه
كجَفــنِ الــيمانِ زَخْــرفَ الــوشيَ ماثِلُــهْ

ديــارٌ لســلمى إذ تَصِــيدك بــالمنى
وإذ حبــلُ ســلمى منــكَ دانٍ تواصُــلُه

وإذْ هــي مثــل الــرِّئم صِــيدَ غزالهــا
لهــا نَظَــرٌ ســاجٍ إليــك تواغِلُــهْ

غَنينــا ومــا نخشــى التفــرّق حقبــةً
كلانــا غريــرٌ نــاعم العــيش باجِلُــهْ

ليــاليَ أقتــادُ الصــبا ويقــودني
يجــول بنــا ريعانُــه ويحاوِلُــهْ

ســما لــكَ مــن ســلمى خيــالٌ، ودونهــا
ســوادُ كَثيــب عرضُــه فأُمايِلُــهْ

وكــم دون ســلمى مــن عــدوٍّ وبلــدةٍ
يَحــارُ بهــا الهــادي الخفيــف ذلاذلُــهْ

وقــد ذهبــت ســلمى بعقلــك كلِّــه

فهــل غــيرُ صــيدٍ أحرَزَتْــه حبائِلُــهْ

فيــا لــك مــن ذي حاجــةٍ حِيــلَ دونهــا

ومــا كــلّ مــا يهــوى امــرؤٌ هــو نائِلُــهْ

لَعَمْــري لمــوتٌ لا عقوبــة بعــده

لــذي البــثّ أشــفى مــن هــوىً لا يزايِلُــهْ

* * *

الرحيل ...
حتى أطلال خولة

(1)

طوّف في الآفاق، وذرع الأرض شرقاً وغرباً... واختبر برداً قارصاً يعقد ذنب الكلب، وحراً يذيب دماغ الضبّ... وتقلّب بين كثبان الرمل الناعمة كأنها الدقيق، وصخور الحرّات السّود التي تقرض حوافر الخيل... افترش الأرض والتحف السماء... وتعلم أن يقرأ الغيوم فيميّز غيماً عابراً لا يعد بشيء، وآخر يبشر بالغيث، وآخر ينذر بعذاب وسيول جارفة... تعوّد أن يرعى مواقع النجوم وأن يستهدي بها في سُرى الليل فكانت دليله إلى الجهات الأربع والصاحب الذي يبثّه نجواه. وتعلّم أن يأتنس بعواء الذئب، وقد يردّ عليه بعواء شبيه يستحثّه على المزيد حتى ليبدو له أحياناً أنهما يتحاوران ويتشاكيان عن بُعد... ولقد يُقسم أنه صادَفَ الغول في إحدى الليالي الدامسة.. عينان كالجمر ترقبانه في ظُلّة هائلة من السواد على بُعد من رَحْله الذي يستند إليه في جوف الليل، حتى إذا سلّ سيفه ليخترطها فَرّت بسرعة عمود الإعصار الرملي الذي التفت به!

أتقن الطرد وصيد الظباء والمها والقطا عند مواضع الماء، فإن لم يجدها أكل الضبّ بعد أن كان يعافه. ونجا بضع مرات من غدر الرمال الرخوة التي يمكن أن تبتلع من يقوده مصيره إليها. وأخذ حظه من النساء أنّى استطاع، وأتقن فنون التسلل والدبيب والغواية!

أما الناس فوجدهم على صورة الصحراء المتقلّبة بين النقائض والأضداد؛ بين الخلاء المجدب الذي لا ترى فيه نبتاً والواحات الخضراء الطيبة، بين الهواء العليل في النهار الصافي الذي ترى فيه آخر المدى، وبين الرياح السافية التي تعمي البصر فلا يرى فيها الراكب رأس ناقته. كذلك كان ناسها: يطعمون الضيف ولو كان بهم خصاصة، ثم يستبيحون إبل الآخرين بالغارة والغزو. يحفظون المستجير بدمائهم، ويهرقون الدم في ناقة عجفاء عدا عليها فقير لا يجد قوت عياله. تُنهضهم كلمة إلى الحرب، وتردّهم كلمة إلى سبيل السِّلم والرشاد والحكمة والعفو، يسرفون في المحبة ويفرطون في الكره، يقضون العُمر يتربّصون المنايا في أنفسهم أو في عدوّهم، وقد قسموا الدهر شطرين: فإما واترون وإما موتورون.

وفي أثناء ذلك كلّه صحب بعض الصعاليك هنا وهناك، وغزا معهم، إلّا أنه كان يفضل أن يسمّيهم ذؤبان العرب. وكان يكره أن يوصف بالتصعلك. واختبر فيهم أنواعاً مختلفة من البشر: السمح الكريم الذي يؤثر على نفسه، واللئيم الممسك الذي يقدم نفسه وحاجته على مطالب المروءة؛ من يكتفي بالقليل ومن يطلب الكثير؛ الحكيم المتأنّي والمندفع الأهوج؛ الرقيق القلب والغليظ العنيف الناقم على كل الناس فهو لا يطلب إبلهم أكثر مما يطلب دماءهم لو استطاع، ولا يفرّق بين فقيرهم وغنيّهم... لا، لم يوحّدهم الفقر وأسباب الخروج من قبائلهم والاحتيال على العيش والبقاء على الأطراف المتنحية عن المنازل والديار. فهم كغيرهم ممن فارقوهم. وقد يتخالفون ويتنابذون فيفاخر بعضهم بعضاً بنسبه وقومه الذين خرج منهم ناقماً مغاضباً! وكما تذهب رياح الصحراء بالأثر، ذهبت

من ذهنه تلك الصورة الجميلة التي صوّرها خياله عنهم، أو أحب أن يتصورها على سبيل المفارقة مع قومه ومثالهم.

ولكن الأيام ستأتيه بمفارقات أخرى أشدّ وأنكى تتنازع روحه وقلبه، وتزيده حيرة على حيرة في عالمه ووجهته، بل في معنى الحياة نفسها!

وبعد عهد من التطواف والتجارب الجميلة والقبيحة في مسالك الذؤبان، استقرّ على صحبة ثلاثة فقط منهم: عامر، وسعد، وحنظلة.

وكان عامر أول من صحب منهم. شاب في مثل عمره، إلّا أنه كان من بيت خامل الذكر، شديد الفقر في قومه. وكان له ابنة عم يحبها أشدّ الحب، وتحبّه. فلما خطبها من عمه أبى إلّا أن يسوق لها خمسين من الإبل. فخرج هائماً على وجهه يبحث عن حظ لا يعلم سبيلاً إليه، إلّا أن تسوقه إليه الأقدار الغامضة، أو يُعْذر إلى نفسه ولو بالموت. وحين لقيه طرفة وجده في حال شديدة من الجوع والوهن. فأطعمه مما معه، ثم أخذا يصطادان معاً. وأعطاه مطلب عامر في ابنة عمه سبباً آخر للغزو، لعلّه يعينه على إدراك حاجته، فيشعر بشيء من الرضا عن نفسه في عالم جفت فيه أسباب الرضا كما تجف موارد الماء في سني القحط. ولكنهما في حاجة إلى جوادين سابقين أولاً. وبعد بحث وتجوال ومراقبة اهتديا إلى مربط للخيول على طرف حيّ من أحياء العرب. وكانت ليلة شديدة البرد لا تهرّ فيها الكلاب.

ولما كانت السنة شديدة في جملتها وأعسرت الكثير من البيوت، فقد كان منهم من ينقُب لُحْيَ الكلب فلا يقدر على النباح، خيفة أن

يستدل به الضيف فيُقَصّر أهل البيت عن قِراه، فتكون عليهم سبّة. ولذلك أيضاً يطفئون نيرانهم.

كل ذلك تواطأ معهما فيما كانا يدبّران. وفوق ذلك فإن عدم اكتراثهما للموت، كل لأسبابه، قد أمدهما بشجاعة مضافة. حتى إذا انتصف الليل وسكنت الأصوات، تمكنا من التسلل إلى الحظيرة. ولم يتنبه صاحبها في خبائه ويفزع إليها إلّا بعد أن انطلقا بجوادين منها يسابقان الريح. وبقدر ما فوجئ صاحبها فوجئ طرفة وصاحبه بسرعة الجوادين اللذين لم يختبرا مثلهما من قبل. ولئن كان ذلك قد أعانهما في الابتعاد والإفلات من مطاردة يائسة، فإنه كان أحرى بأن يثير جنون صاحبهما الذي كان يباهي الجميع بجياده الكريمة السابقة، وكانت أحب إليه من ولده وزوجه. فأخذ يرغي ويزبد إذ يئس من إدراك اللصّين، وحلف يميناً مغلظاً ألا يهدأ له بال حتى يجدهما ولو بعد حين فيقتلهما شرّ قتلة. وكان الجوادان موسومين بوسمه. أما الرجل المكنّى بأبي عنتمة فكان معروفاً بشدّته وقسوته ولؤمه، وكان من خاصّة قومه: بني مازن، المعروفين بشدة البأس والمنعة.

* * *

لم يمض شهران بعد ذلك حتى كانا قد أصابا بعض الإبل. وساقاها إلى شِعب غير مطروق، اختاره طرفة ليكون ملاذاً لهما ومحشراً للإبل التي يصيبانها بعيداً عن أعين السابلة.

رآه يطيل النظر في الإبل، فقال طرفة بشيء من التهكم:

- كأنك تناجيها! أبق من ذلك لفتاتك.

ارتد عامر نحوه وقال مبتسماً:

- ما عليّ لو ناجيتها، فهي سبيلي إلى من أحب.

ثم نظر إلى طرفة متمعناً، وقال بعد هنيهة:

- كل بعير نصيبه يقربني خطوة منها... ويبعدني عنك بقدرها.

هز طرفة رأسه:

- ما عليك أن تقترب من فتاتك وتفارقني!

رد عامر:

- قد صارت بيننا صحبة... والخلّ الوفيّ قليل في هذا الزمان.

أطرق طرفة وقال:

- كل حيّ إلى فراق.

ثم سأل دون أن يلتفت إلى صاحبه:

- جميلة؟

أجاب عامر:

- من؟ آه، نعم. لا ريب... وكذلك كل فتاة في عين من يعشقها.

صمت لحظة وهو يرقب طرفة، ثم سأل:

- وأنت؟ ألم تترك فتاةً تُحبّها من ورائك؟

أجاب طرفة وهو يبتسم ابتسامة غامضة ويرسل نظرة في الفضاء:

- ماويّة! هند! سلمى!

اقترب عامر منه وقد زاد فضوله:

- كل هؤلاء؟

- وغيرهن!

- كيف يعشق الرجل غير واحدة؟

- يعشق واحدة في كل مرة، ثم ينساها أو يُنَسّاها، فيعشق أخرى. والعشق يعطي ويمنع؛ إذا تمكّن من نفسك أشعل فيها جذوةً تضيء وتحرق، ثم حبسك عن حاجات أخرى تطلبها... فكيف أقيم على حب امرأة واحدة، وأنا لا أقيم في منزل واحد!

تنهّد بنفس عميق... ثم أخذ ينشد من شعره في عدد من النساء:

- أصَحَوتَ اليومَ أم شاقَتْكَ هِرّ
ومن الحب جنون مُسْتَعِرّ
لا يكن حبكِ داءً قاتلاً
ليس هذا منكِ ماويّ بِحُرّ

- أتعرف رسم الدارِ قفراً منازِلُهُ
كجَفنِ اليمانِ زَخْرَف الوشي ماثِلُهْ
ديار لسلمى إذ تصيدك بالمنى
وإذ حبلُ سلمى منكَ دانٍ تواصُلُهْ

- لهندٍ بِحِزّانِ الشُّرَيْفِ طلولُ
تلوحُ وأدنى عهدِهنّ مُحيلُ

وبالسفح آياتٌ كأنّ رسومها

يمانٍ وشَتْهُ رَيْدةٌ وسحُولُ

أَرَبَّتْ بها ناآجةٌ تزدهي الحصى

وأسحَمُ وكّافُ العَشيّ هَطُولُ

فَغَيَّرنَ آياتِ الديار مع البلى

وليس على ريب الزمانِ كفيلُ

بما قد أرى الحيَّ الجميعَ بغبطةٍ

إذا الحيُّ حيٌّ والحلولُ حلولُ

ثم التفت إلى صاحبه الذي كان ينصت متأمّلاً متأثراً، وقال:

- أطلال ورسوم وآثار، وديار ومنازل خلت من أهلها، ولم يبقَ للعاشق إلّا الوقوف عليها ورثاء أيامها حين كانت تعجّ بالحياة والصبوات. ثم تعْجب من تنقّل الفؤاد وتغيّره؟ وكيف ترجو أن يقيم القلب على أمر لا يقيم، إلّا أن يكون كهذا الحجر، تنبو عنه حوادث الأيام وصروف الدهر، وهو ملموم على حاله!

تريّث لحظة ثم استأنف:

- يا صاحبي، لا تتأسّ بي، فلكل مذهبه وغايته وحاجته. فاسع في طلب ابنة عمك، وأنا أسعى لك ومعك. ولكن هيّئ النفس لغدر الزمان وتقلّبه وخيباته، كيلا تذهب نفسك أسىً عليها.

فجأة بدا أن طرفة قد خرج من تأملاته وأصاخ السمع، وكان ذا سمع خارق، همّ عامر أن يسائله فأومأ إليه بسرعة أن يلزم الصمت.

- من حاول أمراً فهو هالك.

فوجئ الصعلوكان الدخيلان اللذان كانا يقتربان حَبْواً من الإبل ليصيبا منها، بصوت طرفة، وقد شهر وعامر سيفيهما. ولم يكن في وسعهما المقاومة. وما هي حتى كانا يجلسان موثقين عند بقايا الموقد، بينما وقف طرفة وعامر عندهما. قال عامر متبرماً مخاطباً طرفة:

- اللعنة! كان ينبغي أن يُقتلا في ذلك الموضع. ولو أنهما وجدانا في غفلة لقتلانا ثم ساقا الإبل كلها. والآن ماذا عسانا نصنع بهما؟ فما هي إلا القتل، أو نطلقهما فيدُلّان علينا ويرجعان بنفر يغلبون علينا قبل أن نفْزع إلى مكان بعيد آخر.

صاح طرفة بعامر بصوت غاضب على نحو مفاجئ:

- وكيف حصلنا نحن على تلك الإبل؟ هل ورثناها عن أب أو جدّ؟

ثم تغيّر بصوته وهو يرسل بصره إلى الصعلوكين:

- إنما كانا يحاولان كالذي نحاول... إلّا أنهما لم يفلحا فيما أفلحنا به حتى الآن. فنحن فيه سواء، خيراً كان أم شرّاً.

هنا أطلق حنظلة ضحكة غريبة مفاجئة، فنهره طرفة بحزم:

- أطبق فمك.

مرت لحظت صمت قبل أن يسأل حنظلة:

- فما عساك تفعل بنا؟

أجاب طرفة:

- كيف تحكم؟

- لا حكم للأسير الموثق. ولكن، يتمنى من غير ذِلّة.

أخرج طرفة سكيناً ومشى به نحو الرجلين، بينما كان عامر يرقب حائراً، والرجلان ينظران بوجل. رفع طرفة السكين وتريّث لحظة، ثم نزل بها على وثاق كل منهما فقطعه أمام دهشة الجميع. وقال عامر:

- تطلقهما؟ ألا تخشى أن يخبرا عنا و...

قاطعه حنظلة:

- لا غَدْرَ بعد مِنّة.

وأردف صاحبه سعد:

- ولا يشي الصعلوك بالصعلوك.

نهره طرفة:

- لست صعلوكاً.

قال حنظلة:

- فَمَه؟ وهذا الذي قلت عنا وعنكما؟

- ما زالت العرب تغزو وتفاخر به. فأي فرق بين غزو القبائل وغزو من خرجوا من أقوامهم؟ إلّا أنه لكل منا غايته.

ردّ حنظلة:

- إذن، نجتمع على الوسيلة، وأما الغايات فما لنا ولها. فما قولك؟

أخذ عامر ينقل بصره بين طرفة والرجلين وقد أزعجته فكرة انضمام الرجلين إليه وطرفة في الغزو. بينما خاطبهما طرفة:

- جائعان؟

أجاب سعد بسرعة بمَثَل مأثور:

- أجْوَعُ من كلبةِ حَوْمل.

قذف لهما طرفة صرّة تمر وبقية من الشواء الذي تخلف من طعامه مع عامر، وقال:

- كُلا...

وأردف بمَثَل آخر مشهور:

- ولا تكونا أخدعَ من ضَبّ.

أغرى الكلام بالأمثال عامراً، فأردف:

- ولا أَنَمَّ من صبح.

انهمك الرجلان بتناول الطعام بشراهة تنم عن الجوع الشديد، بينما تنحى طرفة وعامر، وهمس عامر لطرفة:

- كيف تثق بهما حتى تشركهما معنا في الغزو؟ وأنت بعد لا تعرفهما.

أجاب:

- ولم أكن أعرفك حين لقيتك. إلا أن لي فراسة. أما الثقة التامة، فإني لا أثق إلّا بنفسي.

تساءل عامر:

- ألا يقلّ نصيب أحدنا مع الكثرة؟

أجاب طرفة:

- أو يزيد. والواحد مُضيّع، والاثنان يقتسمان الرأي أو يتنازعان عليه دون ترجيح. والثلاثة وما فوقهم ركب وجماعة.ثم إننا نحتاج إلى من يحفظ الإبل إذا خرج الآخرون للغزو،أو كثرت الإبل كما نرجو... وأنت... أنت أكثرنا رجاءً!

وابتسم له لأول مرة وربّت على كتفه تحبباً وعطفاً.

* * *

(2)

لم يكن حنظلة وسعد بأقل ريبةً حين خرجا مع طرفة وخلّفوا عامراً على الإبل في ذلك الشّعب. فقال حنظلة:

- ألا تخشى أن تعود فتجده قد ذهب بإبلك وإبله؟

أجاب طرفة دون اهتمام:

- قد يكون هذا.

ثم التفت إلى الرجلين:

- إني لا آمنه أكثر مما آمنُ ما وراء ذلك الكثيب! أو أن يعثر بي جوادي هذا فيرديني... أو... أن تغدرا أنتما بي! فالحياة كلها على الاختبار... لا أفرح بما أصيب، ولا آسى على ما يصيبني! ولا يقين إلّا الموت!

مرّت هنيهة صمت، قبل أن يسأل طرفة سعداً:

- وراءك خوف. أليس كذلك؟

توقف سعد وقد أدهشه السؤال، وأخذ حنظلة ينقّل نظره بينهما، ولم يكن بأقل دهشة من صاحبه فقال:

- وكيف عرفتَ أنه أصاب دماً فخرج خائفاً من الثأر؟

أرسل طرفة نظره في الأفق البعيد، وقال:

- رأيته يكثر التلفت من ورائه ومن حوله، ويجفل إذا سمع نبأة أو حِسّاً.

قال حنظلة:

- أما والله إنك على صغر سنّك لذو حكمة وفراسة.

نظر طرفة إلى سعد مستطلعاً. فقال:

- كان لي أخ هو كل أهلي... قتله بعضهم، فعيّرني به الحيّ، وما زالوا بي حتى ثأرت له وغِلْت قاتله.

قال طرفة:

- دم بدم، والبادئ أظلم.

اكتسى وجه سعد بابتسامة حزينة شاحبة، وقال:

- إلّا أن الدماء ليست سواء في ميزان القوم... ألم تسمع قول المتلمس شاعر ضبيعة بن ربيعة يقول:

أحـــارِثُ إنّـــا لـــو تُســـاطُ دماؤنـــا

تـــزايَلْن حتـــى لا يمـــسَّ دمٌ دمـــا

أو قول ذلك الشيباني يصف مقتل بعض أبناء عمّه مع مواليهم، يقول: كنت والله أرى دم أبناء عمّي ينماز عن دم المولى، حتى أرى بياض الأرض بينهما.

أثار ذكر خاله المتلمس وذكر ذلك الحيّ من شيبان، وهم حيّ من قومه بكر، مواجد في نفسه آثر كتمانها. وعاد يسأل سعداً:

- وأين هذا مما جرى عليك؟

أجاب سعد:

- أهرقت دماً صريحاً بدم هجين.

أخذ طرفة يتفحصه، إذ لم يكن في لونه ما ينمّ عن هُجنته. وأدرك سعد معنى نظرته الحائرة، فتابع:

- لم يشفع لي لون أبي كما ترى، وأنه عربيّ. ولحقتني سبّة أمي السوداء.

قال طرفة متفهماً:

- خَذَلك حيُّك بعد أن أصبت ثأرك، وكانوا هم من أغروك به!!

هز سعد رأسه وقال:

- يقولون: لماذا نحتمل غرم رجل هجين مخلوط النسب. حتى الدية أبوا أن يسعوا فيها.

أضاف حنظلة مشيراً إلى سعد:

- فإن كان هذا حاله، فأحرى به أن يخرج فيغزو مع أمثالنا... فإن أصيب في ذلك فهو مقتول على كل حال، وإلّا جمع مالاً يرجو أن يسوقه في دية قتيله بشفاعة من يرضى بأن يتوسّط له.

هز طرفة رأسه متأمّلاً، ثم تابعوا السير.

وقف طرفة بجواده، بينما تقدّم حنظلة وسعد نحو الراعي الذي نظر إليهما مستريباً. ثم أشار حنظلة إلى ناقتين مع الراعي وسأل:

- بكم تبيع؟

أجاب:

- ليستا للبيع. وما هما لي حتى أبيع... إنما أنا...

قاطعه حنظلة وهو يضع يده على مقبض سيفه:

- أعِدِ النظر.

هنا سمع صوت طرفة من مكانه:

- لا تراوغ مع الرجل، وباشره بما تريد.

ثم توجه بالكلام إلى الراعي:

- إننا نغزو ونحن كما ترى ثلاثة، وأنت واحد. ولا نريد بك الأذى.

كان حنظلة وسعد قد ترجّلا عن جواديهما وتقدّما نحو الناقتين، ولكن الراعي اعترضهما متأهباً بعصاه، وقال:

- دون ذلك هلاكي. وإنها لأمانة لأهل بيت كريم في سنة شديدة.

نفخ طرفة وهمس لنفسه:

- ما أضيق ما بين الشجاعة والحمق!

سلّ حنظلة سيفه وهَمَّ بالراعي حين سمع صوت طرفة صائحاً به:

- لا تفعل. ألا تراه أعزل!

اغتنم الراعي الفرصة ولطم حنظلة لطمة شديدة أوقعته أرضاً، وأسرع سعد واعترك مع الراعي، وانضم إليه حنظلة الذي نهض

مسرعاً، وتمكّنا من طرح الراعي على الأرض دون أن يتوقف عن النضال والمدافعة، وفجأة سُمِع صوت امرأة تصيح:

- أيديكم عنه يا أبناء ذوات الرايات.

تعني البغايا. وكانت تهرول نحو موضع الراعي والآخرين وهي تحمل بيديها قضيباً غليظاً من الحطب، نزلت به على حنظلة وسعد بضربات متتالية لم يفلحا في تجنبها، ولم تتوقف إلّا مع قهقهة طرفة من مكانه، فالتفتت إليه:

- ما الذي يضحكك يا ابن الـ...

قاطعها بسرعة:

- حسبك. لا تسبّي أمي... فهي امرأة حرة كريمة...

توقف لحظة خاطفة وتابع بنبرة مشوبة بالإعجاب:

- مثلك.

قالت دون أن يزايلها الغضب:

- مثلي لا تلد مثلك.

سبقه لسانه إذ قال باعتزاز:

- لو عرفتني لقلتِ غير هذا.

ردّت:

- وهل بعد النظر من خبر؟ ثلاثة يَعْدون على واحد!

أجاب طرفة:

- قد نهيناه عن النزال، فأبت عليه حميّته وأمانته... وإنه لعمرُ الله قد عَظُم في عيني.

تدخل الراعي مفسِّراً لها:

- أرادوا الناقتين.

قالت خولة مستنكرة:

- سَلْب؟

قال طرفة:

- بل غزو.

ردّت:

- ما هكذا يكون غزو الرجال، إنما يكون الغزو باختلاط الخيل بالخيل.

أطرق طرفة لحظة، ثم رفع رأسه وقال:

- صدقت يا امرأة. فارجعي راشدةً بمالك. إنْ كانت والله لزلّة، فاكتميها عني إن تبيّن لك خبري يوماً، فإن لكل حصان كبوة، ولكل صارم نبوة. وتلك والله كانت كبوة حصان ظنّ أنه لا يكبو، ونبوة صارم ظنّ أنه لا ينبو.

صاح حنظلة معترضاً:

- إن كنت ترى ذلك في نفسك، فإنا لا نراه في أنفسنا. مالٌ ساقنا الحظ إليه، فلا نبرح حتى...

قاطعه طرفة بنبرة حازمة:

- لا يمدنّ أحدكما يده إلى إحدى الناقتين إلّا قطعتها بسيفي، أو يسبق إليّ فيقتلني أولاً.

تبادل حنظلة وسعد نظرة حائرة، وكان سعد أقرب إلى موافقة طرفة، فأومأ إلى صاحبه، وما هي حتى انطلقا مبتعدين، بينما تمهّل طرفة ينظر إلى الفتاة التي لم يخف التعرض للشمس جمالها الأخّاذ. أين يجتمع الجمال مع قوة النفس وشجاعة القلب؟ خرج من أفكاره إذ سمعها تقول:

- ما يوقفك الآن من وراء صاحبيك؟

أجاب بتلطف ورقّة:

- كيف يمكن أن أسدّ ما أخللت؟ إن شئتِ رجعت لك أو لراعيك ببعيرين من مالي.

أجابت وقد شفّ وجهها عن طيف ابتسامة:

- تعني من سَلْبِك؟

ثم أردفت:

- إننا لا نتعرض للعطايا.

دار بجواده وقبل أن ينطلق سمعها تخاطبه:

- قد سددتَ ما أخللت، وأصلحت ما أفسدت بما أعقبت. وأحسبك كما قلت في نفسك: من محتدٍ كريم، فامضِ راشداً.

شجعه ذلك على أن ينفتل بجواده سائلاً:

- ألا تخبرينني باسمك وحيّك؟

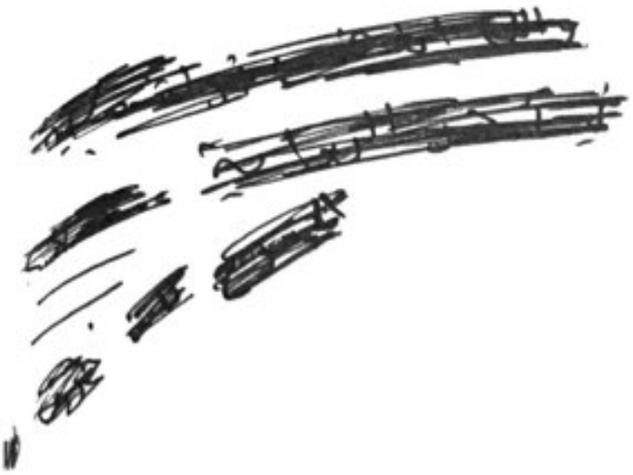

أجابت:

- إن أخبرتني أنت أولاً.

أجاب:

- طرفة.

قالت:

- ألا تنتسب؟

قال:

- ذاك نسبي... طرفة، حسب.

قالت:

- جواب فتى معتد بنفسه، يرى نفسه أُمَّة، أو جواب فتى لا يريد أن يُحمِّل قومه آثامَه!

اكتفى بالابتسام. أعقبت:

- خولة. ولا أزيد إذ لم تزد أنت.

انطلق بجواده مبتعداً يثير الغبار خلفه، بينما وقفت تشيّعه بأنظارها، وقد ذهبت عنها كل مشاعر الغضب، وحلّ مكانها إعجاب لم تملك أن تدافعه.

* * *

حين اجتمع الأصحاب الأربعة من جديد في ذلك الشعب الخفي، لم يتوقف طرفة وعامر عن الضحك إذ استرجع طرفة ما وقع لحنظلة وسعد من الضرب على يد امرأة أعرابية لا تعرف الخوف.

قال حنظلة:

- اضحكا ما شئتما! لم تنزل العصا على أحدكما.

وتحسس آثار الضرب على جسمه متهكماً. وقال طرفة:

- وأي عصا! كادت تفتك بكما لولاي.

قال حنظلة:

- لولاك لكنا الآن نناجي تلكما الناقتين، أو نرتمي بلحم إحداهما. وإني لا أفهم الفرق... هذا سلب وذاك سلب. فمن أين جاء ذلك الكلام عن سلب السرّاق وسلب الغزاة!

أرسل نظرة إلى طرفة، ثم تابع:

- نعم... الفرق أنها امرأة جميلة وقعت في نفس شاعر! فهي أقوى عليه من كتيبة في الحديد!

قال طرفة متأملاً:

- إنما يغلبن الكريم ابن الكريم، ولا عار عليه. إنما العار على من يغلبهنّ!

ثم هز رأسه وسرح ببصره في البعيد، وقال كمن يخاطب نفسه:

- وأيّ امرأة!

قال حنظلة وهو يعاين إبلهم:

- بل الإبل أجمل عندي. فهي سبيلك إلى غاياتك... الزوج الجميلة ذات الحسب والنسب... والمنزلة في قومك و...

قاطعه طرفة قائلاً:

- ما دمت قد قلت ذلك، فاذكروا أنا تعاهدنا أن يحمل بعضنا بعضاً بما نصيب، الأول فالأول. وقد صار عندنا من الإبل ما يكفي لحاجة صاحبنا هذا...

وأشار إلى عامر.

انتفض حنظلة ممتعضاً. وكان يخشى أن يسمع هذا. وإذ لحظ طرفة منه ذلك، أنشد من شعر عروة بن الورد:

وإني امـــرؤ عـــافي إنـــائيَ شِرْكـــةٌ

وأنـــت امـــرؤٌ عـــافي إنائـــكَ واحـــدُ

أقسّـــم جســـمي في جســـوم كثـــيرةٍ

وأحســـو قـــراح المـــاء والمـــاء بـــاردُ

ذاك هو الرجل. ولو كان كل الصعاليك على مثاله، لسرّني أن يقال لي: صعلوك.

قال عامر متعففاً:

- إني أُحلكم من ذلك العهد. حتى تكثر الإبل، فلا أبلغ منها حاجتي حتى نكون في القسمة سواء!

ردّ طرفة:

- بل هذا سبب آخر لاقتضاء العهد الذي بيننا. فإن الإبل إذا زادت فوق الذي صار عندنا، ضاق بها هذا الشعب، ولم يسعنا حفظها من الطالبين. فصارت الزيادة نقصاً، وربما ذهبت كلها.

ولكن نقضي بما اجتمع لنا منها حاجة صاحبنا في مهر فتاته. ثم إذا اجتمع لنا مثلها بعد ذلك، سعينا في حاجة سعد.

قال حنظلة معترضاً:

- وماذا بعد؟ تبقى أنت وأنا. ولن يجمع اثنان ما يجمع أربعة.

تدخل سعد قائلاً:

- إذا اجتمع لي بعد عامر ما يفي بديّة قتيلي، ورضيها القوم مني بشفاعة الشفعاء، فأمِنت على نفسي الغيلة، عدت إليكما فغزوت معكما، وكان الكسب كله لكما. فليس لي حاجة في الإبل والغنى بعد ذلك.

أضاف طرفة:

- وقد نجد من ينضم إلينا مكان عامر. فقد كثر الصعاليك، ومنهم ذوو مروءة... مثل سعد! لا مثل أصحاب عروة بن الورد الذين انقلبوا عليه، وانفضّوا عنه، وبخلوا بما جمعوا معه، حين صار أحوج ما يكون إليهم، لا من أجل نفسه، ولكن من أجل الفقراء الذين كان يردّ عليهم ما يصيب من أموال الأغنياء!

أشاح حنظلة بوجهه وقد فهم مغزى التعريض به. وآثر الصمت والقبول على مضض. وقال طرفة:

- قُضِي الأمر إذن. غداً نسوق الإبل إلى حيّ عامر على مسافة يومين. وأنا خارج معه، فمن شاء أن يلحق بنا فعل، حتى نُبَلّغه منازل قومه.

* * *

(3)

في ضحى اليوم الثاني على المسير إلى منازل قوم عامر، أخذ هذا يحدو الإبل بصوت جميل فاجأ أصحابه، ليحثها على السرعة. وكان قلبه يسبقه إلى الديار، ويتمنّى لو كان بوسعه أن يطوي الأرض طيّاً إلى الوعد الذي انتظره طويلاً، والفتاة التي تعشّقها حتى استوطنت قلبه وعقله وجوارحه، وعلم أنه راغب عن الحياة بدونها. وقال طرفة حين رأى ذلك منه:

- رفقاً بنفسك وبالإبل أيها الرجل. ما لي أراك لا تصبر الآن وقد طال صبرك قبل ذلك.

أجاب عامر:

- إذا اقترب الوعد، زاد الوجد. أبيني وبين لبنى أن ينقضي هذا النهار؟

وكانت هذه أول مرة يبوح باسمها.

وإذ كاد النهار أن ينتصف مرّ على قرب منهم فارس يعدو بجواده. وبعد أن جاوزهم ارتدّ إليهم وأخذ يدور خلف الإبل وينظر، ثم ما لبث أن انطلق من جديد بسرعة أعظم.

توقف طرفة وقد تنبه لعمل الفارس واكتسى وجهه بسيماء التفكّر. ثم نادى في أصحابه.

- تفرّقوا... تفرّقوا... دعوا الإبل وانطلقوا من فوركم...

نظروا إليه بين الدهشة والصدمة وقد عرتهم الحيرة. وصاح عامر:

- كيف قلت؟

أجاب طرفة متعجّلاً:

- قد سمعتني. أطيعوني... أرأيتم إلى ذلك الفارس الذي مرّ بنا؟ قد ارتد عائداً وتفحّص أدبار الإبل، ثم انطلق بأقصى سرعته. ولا أظن إلا أنه ميّز وسم بعضها فدلّه ذلك على أصحابها. فأسرع يخبرهم. وما هي حتى يحيطوا بنا بعديدهم، فيأخذوها ويأخذونا معها.

تأهب سعد وحنظلة للامتثال. إلا أن عامراً ثبت في مكانه لا يتزحزح. فصاح به طرفة من جديد:

- ثكلتك أمك، ألم تسمعني؟ حياتك أو الإبل.

أجاب:

- بل الإبل الآن... أفبعد أن صرت على مسافة نصف نهار من غايتي أرجع عنها؟

صاح طرفة:

- لئلا تخسر غايتك وحياتك معاً.

ردّ عامر بعناد:

- لا والله لا أبني على ظنٍّ ظننته أنت لا يسعك أن تقطع به أو تحلف عليه، وإني ماضٍ مع الإبل. فانطلقوا أنتم إذا شئتم.

سقط في يد طرفة وقد يئس من إقناعه. فصاح في سعد وحنظلة:

- إذن فانطلقا أنتما. فإن صحّ ظني فلا نؤخذ جميعنا.

قال سعد:

- وأنت؟

- لا أرجو من الحياة أكثر مما يرجو عامر. يصيبني ما يصيبه. وعسى ألّا يصح ظنّي ونبلغ بالإبل محلها. ولا تجادلاني بعد! هيا...

بعد تردد انطلق حنظلة وسعد. وتابع طرفة وعامر مسيرهما بالإبل.

* * *

(4)

لا، لم يخطئ ظنّ طرفة الذي كان حدسه يخيفه أحياناً، ولكنه أحب أن يشك بظنه هذه المرّة، وأن يتعلّق بأمل صاحبه. وما كان ليتركه وحده على كل حال وقد صار له بمثابة الأخ، وهو الذي أخذ على نفسه من قبل أن يعينه في بلوغ غايته، لعله يشعر بالرضا عن نفسه ويجد معنى لخروجه من قومه وتطوافه في الآفاق. وحين أحاط بهما القوم من كل جانب أدرك ألا جدوى من المقاومة أو محاولة الفرار. فساقوهما موثقين مع الإبل التي لم تكن كلها مما سُلب منهم. ولكنها غنيمة مستحقّة فوق الذي لهم. وكانوا قوماً من غطفان، إحدى قبائل العرب العظيمة وجماجمها الكبرى. وكانوا معروفين بشدة البأس وأنهم يمنعون مالهم وحماهم ولا يتسامحون مع من يتجرأ عليهم، يتباهون بأنهم يَغْزون إن شاؤوا ولا يُغْزَون.

كان الصاحبان يجلسان موثقين بالحبال في شقٍّ مجاور للخيمة الكبيرة التي يجتمع فيها وجوه القوم. ولبثا صامتين متفكرين برهة من الوقت، وعامر يطيل الإطراق حزيناً شارد الفكر، حتى قال بصوت هادئ كأنه يخاطب نفسه:

- أبعد أن صرتُ على مسافة فرسخين من ديار قومي ومنزل صاحبتي؟! ذلك والله أشدّ وأنكى.

آثر طرفة ألا يقول شيئاً. ولكن عامراً أمعن في النظر، ثم قال:

- لك أن تلوم وتقرّع كما تشاء. فقد والله نصحت، ولكن لهفتي أعمتني وأصمّتني. وكذلك تفعل الرغبة الطاغية. وليس الآن همي على نفسي، ولكن أني أوردتك معي المهالك، ولم يكن لك في شأني ناقة ولا بعير.

قال طرفة:

- بل شأنك شأني... وما كنت لتُلزمني ما لا أريد... قد اخترته لنفسي. فلا عَذْل ولا لوم. هوِّن عليك.

مرّت هنيهة صمت أخرى، وعاد عامر إلى الكلام:

- هؤلاء من غطفان، وقد علمتَ من هم. ولا أرى إلّا أننا مقتولَيْن. وما أخرونا إلّا ليتبيّنوا أمرنا أولاً. فيعلموا ما الذي يقدمون عليه وما وراءه. أما أنا فقومي ليسوا ذوي منعة لترتدع عني غطفان خشية الطلب. ثم أني في قومي لست ذا منزلة فتحمّر لي أنوف. قد ضيعوني في مهر فتاةٍ هي ابنة عمي، فلا أرجو أن يقارعوا عني بنحورهم.

توقف لحظة ثم استأنف:

- أما أنت، فقومك من أمنع العرب، وأنت من بيت مقدّم فيهم، فلو...

قاطعه طرفة:

- من أمنع العرب، نعم، إلّا مع عمرو بن هند.. ملك الحيرة.

ردّ عامر:

- فليكن... قومك يخافون عمرو بن هند، والناس يخافونهم لخيفتهم عمرو بن هند، إذ قومك في عهده وسلطانه. فإن كانوا لا يمتنعون منه، فإنهم يمتنعون به من سائر الناس!

ذهب طرفة في التفكير في تلك المفارقة التي ذكرها عامر. وأردف عامر:

- فلا أقل من أن تنجو أنت، إن بحت لهم بنسبك وقومِك ومن ورائهم ملك الحيرة.

أجاب طرفة بعد لحظة تفكير، كأنه يحدِّث نفسه:

- حين خرجت من قومي، آليت على نفسي ألّا أتوسّلهم في حاجة من الرجاء أو الخوف. فهل أستغني عنهم وأنا فيهم، ثم أتحصّن بهم وأنا بعيد عنهم؟

قال عامر:

- ولكنها حياتك الآن.

أجاب طرفة:

- حياتي ومماتي.. كلاهما على شرطي، لا على شرط القوم!

هز عامر رأسه بأسف:

- لا أفهم هذا...

قال طرفة:

- ولن تفهمه.

* * *

في الخيمة الكبرى المجاورة، اجتمع رؤساء القوم يتشاورون في أمر الأسيرين. وتصدر للكلام اثنان من أكابرهم: أبو مرّة وأبو ضمرة. وكان أبو مرّة أغلظهما قلباً وأحدّهما مزاجاً وأسرعهما إلى البطش، ويرى ذلك من حزم الرجل. أما أبو ضمرة فلم يكن أقل منه حميّة وغيرة على قومه، ولكنه كان أكثر حكمة وأحسن تدبّراً وأوسع صدراً وأكثر ليناً. وكان سائر القوم يعظّمان الرجلين على سواء، ويرون أن رأي أحدهما يعتدل برأي الآخر، وبهما معاً يعتدل أمر الجميع، فأسلما لهما أمرهم في عظائم الأمور. وكان من الطبيعي أن يرى أبو مرّة قتل الأسيرين ليكونا مَثَلاً وعبرة لكل من تسول له نفسه العدوان على حمى القبيلة ومالها. وهم في سنة شديدة تغري بالغزو والغارة من كان دأبه السِّلم والموادعة، فكيف بمن اتخذ الغزو شعاره ودثاره في أيام السعة وأيام الضيق كأولئك الصعاليك وذؤبان العرب. فالأَوْلى قطع دابر الشرّ في بوادره قبل أن يستشري ويستغلظ.

ثم قام أبو ضمرة، فبسط للقوم رأياً آخر. فكان مما قال:

- إن الضرّ له طرائق شتى. ولعمري إن المرء لا يختار بين أمر كله خير، وأمر كله شر. إذن لهانَ الخطب واستوى الناس في الرشد والرأي. ولكنا نعرض هذا على هذا ثم ندفع بأهون الشرّين. وقد قال أخي أبو مرّة، ومقالته حق. ولكن الحق أيضاً أنا لا نرجو أن نقتل رجلاً قد يكون عزيزاً في قوم أعزاء. فيكون من ذلك بيننا وبينهم شرّ عظيم، وذلك في إبل استرجعناها وفوقها أكثر منها.

ردّ أبو مرّة:

- أما أحدهما فقد أنبأنا عن نفسه، فلا هو عزيز في قومه، ولا قومه كِفاءٌ لنا.

قال أبو ضمرة:

- وأما الآخر فلم يعطنا من نفسه إلّا أن اسمه عمرو. وأبى أن يزيد فينتسب. وصاحبه لا يفصح عنه، كأنه استعهده على الكتمان.

ردّ أبو مرّة:

- لو كان ذا شأن لانتسب وكفانا الجدال فيه. ولِمَ ينقطع رجل شريف عن قومه إلى بعض ذؤبان العرب، وكان أحرى به أن يكون معهم يخرج في غزواتهم، ويرشد برشدهم أو يغوى بغيهم؟ إلّا أن يكون فتى مطعون النسب، أو خليعاً نبذه قومه، أو فقيراً من سَقط القوم يحمل الدّلاء ويحتطب للنساء.

قال أبو ضمرة:

- أو لعله لم يرد أن يشين قومه فيما جنى... وإني تفرّست فيه وفي طريقته إذا أكل أو شرب أو قام أو جلس أو تحدث. فرأيت فيه مخايل العزّة والرفعة وعمل أهل الحضر، وفي لسانه من طريقه أهل هجر والبحرين.. وهي أرض بكر وعبد القيس وضبيعة، وفي حكم ملك الحيرة. فإن صحّ ظني فهل نريد أن نصيب دماً في أولئك فنجني على أنفسنا حرباً نعرف أولها ولا نعرف آخرها؟

ردّ أبو مرّة:

- ذلك ظنّك يا أبا ضمرة. وليس الظنّ كاليقين. ولكن حتى لو صحّ ظنك فيه، فإنك لم تجبني.. ما الذي أفرده عن قومه في أرض الوبر، يغزو مع الصعاليك والذؤبان؟

أجاب أبو ضمرة:

- لعله قد تسخّط قومه لأمر ما، فخرج منهم مغاضباً. ومثل هذا يقع لأشراف الناس.

- قد قلتها إذن يا أبا ضمرة. فليكن حاله على ما تظنّ من شرفه... ولكنه تسخّط قومه وتسخّطوه... والأرجح أنه لم يخرج منهم حتى أخرجوه.. ولا يكون ذلك إلا لسوأة فيه أنكروها أو جناية جناها، فهو في حكم الخليع والشاة القاصية... فإن أصبناه لم يحتملوا ذمّته.ولعله لذلك يكتم نسبه. وهذا إن صحّ ظنك، ذاك، وما أحسبه يصح!

ردّ أبو ضمرة:

- وهمت يا أبا مرّة. فقد يهون الرجل في قوم لسبب من الأسباب ، ولكنهم لا يرضون أن يهون في غيرهم فيكون ذلك هواناً لجملتهم، وتكون عليهم سبّة وعاراً، ويخشون أن تعتقد العرب فيهم ضعفاً وذلاً فيستهينوا بهم. وقد علمتَ أن العرب إذا لقيت رجلاً مجهولاً بادرت إلى السؤال عن نسبه قبل اسمه. فهو قبيلة في رجل، تلزمه أنّى مضى وأنّى ارتحل، ولو كان وحده.

كانت حجة أبي ضمرة قوية. فلم يجد أبو مرّة إلا أن يقول:

- إن كان لا بد، فعاوده بالسؤال يا أبا ضمرة. وشدد عليه وعلى صاحبه، وأنذرهما بموت محقق.

حين دخل أبو ضمرة على طرفة وصاحبه، ابتدره طرفة بالكلام:

- قد سمعت قولكم. وأنت رجل ذو عقل وحكمة وفراسة! رَشَد القوم إن أطاعوا رأيك.

لم يدر كيف خرج ذلك الكلام منه دون تدبّر أو إرادة. لكأن شيئاً ما في أعماق نفسه قد تحرّك على الرغم منه فغلبه على نفسه المعتدّة، فرجا أن يعلم الناس نسبه وشرفه وقومه فيرتدعوا بها دون أن يبوح بنفسه. وهذا كلامه لأبي ضمرة يؤيِّد ظنّه فيه. ولعل ما استفزه ليلمح دون أن يصرّح مقالة أبي مرّة فيه يصغّر من شأنه ويحسبه من سَقَط القوم. فإن كان اعتداده بنفسه منفرداً هو ما دعاه إلى الاستغناء بها عن قبيلته، فها هو الآن يتعرّض للمهانة والتصغير دون أن ينفعه رأيه في نفسه! الاعتداد بالنفس هو ما أفرده عن قومه، والاعتداد بها هو نفسه الآن ما يُرغِّبه في أن يدرك القوم شرف قومه ونسبه، فيعلموا أي فتى أصابوا! وذلك دون أن ينقض عهده الذي عاهد به نفسه، ألا يبوح بنسبه ويتوسّله في حاجته مهما تكن في أمر من الرجاء أو أمر من الخوف.

حين سمع أبو ضمرة كلامه ذاك، رجح عنده صدق فراسته فيه، فقال:

- إذن، فأنت كما قلت أنا فيك. فهذا معنى كلامك. ولكن القوم من ورائي لن يسعهم غير التصريح واليقين. فلِمَ تُهدف نفسَكَ للهلكة وتهدفنا لعواقبها. بُح إذن وأعِنّي على رأيي.

أشاح طرفة بوجهه صامتاً. وحين يئس أبو ضمرة منه، استدار ليخرج وهو يقول:

- قد استفرغت جهدي، وما أنا إلّا رجل من قومي.

وقبل أن يخرج من باب الشقّ، سمع صوت عامر:

- على رسْلِك، أنا أدلّك على قومه!

استدار أبو ضمرة، بينما انتفض طرفة غاضباً وصاح بصاحبه:

- لا تفعل! ذاك كان عهدي لك.

ولكن عامر لم يأبه له وقال:

- إنه طرفة بن العبد البكري...

اهتزت ملامح أبي ضمرة وقد صحّ حدسه فيه. ولكنه لم يكن ليتخيّل أن يكون الفتى ذلك الشاعر الذي طار صيته في الآفاق، وسارت بشعره الركبان، وفاق غيره من الشعراء على صغر سنّه. فقال وقد أخذته الدهشة:

- ذلك الشاعر! أما والله إني لأتمثل بشعرك. ولكن ما ذاك الاسم الذي سميته لنا: عمرو.

أجاب عامر عنه:

- ذاك اسمه الذي سمّاه به أبوه. أما طرفة فهو ما سمى به نفسه حتى اشتهر به ونسي الناس اسمه الأول.

هزّ أبو ضمرة رأسه مبتسماً راضياً قبل أن يخرج ليخبر القوم، وأرسل طرفة إلى عامر نظرة عابسة توحي باللوم والعتاب أنه كشف سرّه. ولكنه كان يخفي بها شعوراً غامضاً بالراحة والرضا، يكاد أن يلوم نفسه عليه!

عاد أبو ضمرة فرحاً يقصّ على القوم الخبر، وهو يحسب أنه بذلك قد قطع قول كل خطيب. ولكنه فوجئ بأبي مرّة ينطلق بالضحك وقد انبسطت أساريره، ثم يقول:

- قد أَرَحْتنا والله يا أبا ضمرة وقضيت في الأمر. ما علينا الآن لو أخذناه بجرمه.

صاح أبو ضمرة:

- كأنك لم تعقل قولي. ذاك سيد من بكر، من خير بطونها وأسودهم: قيس بن ثعلبة. وإنك لتعلم ما هي بكر ومن وراءها. قد طَعَنتْ طعنةً في تغلب، بني عمومتها، شغلت الحيين دهراً في حرب البسوس. وذاك أنبغ شعرائها قد شغل الدنيا بشعره، وأخمل به غيره من شعرائها.

ردّ أبو مرّة بحزم وثقة:

- بل عقلت يا أبا ضمرة، وما سرّني شيء كالذي قلته، فقد صرنا في حلّ منهم إذا أخذناه بجريرته. فقد ذاع خبره مع قومه مع ذيوع شعره. فبدلاً من أن ينافح عنهم به، ما زال يذمّهم ويخالف عن أمرهم ويحرّضهم على عمرو بن هند الذي تخوّفنا الآن بأنه من ورائهم، حتى كاد أن يهلكهم لولا أن تداركوا الأمر وساقوا وفدهم إلى أعتاب ابن هند يعتذرون ويتذللون. ثم ما زال مقيماً على خلاعته ومجونه حتى أعياهم وضاقوا به وأقصوه إقصاء البعير الأجرب. وذلك قوله في شعره الذي حفظناه.

إلى أن تحاشـــتني العشـــيرة كلهـــا
وأُفـــرِدت إفـــرادَ البعـــير المُعَبّـــدِ

أما والله يا أبا ضمرة إن ظنّك بقومه أحسن من ظنّه بهم، وظنّك به خير من ظنّهم به.

قال أبو ضمرة:

- ربما كان الذي تقول. ولكنا لم نعلم أن القوم قد أعلنوا بخلعه ، فصار دمه مباحاً لمن يطلبه.

أجاب أبو مرة:

- هو والخليع سواء. ولا أعجب إن قتلناه أن يحمدونا لذلك. وبعد. ما أدرانا أن قول صاحبه فيه حق وصدق. فلعله قد كذب في التعريف به طلباً للنجاة؟

ارتفعت أصوات الحضور تأييداً لأبي مرّة. وسقط في يد أبي ضمرة. ثم سكتت الأصوات إذ سُمِع صوت طرفة مرتفعاً يأتي من وراء الستر بينه وبين خيمة القوم، وقد زحف إليه وتمكن من رفع أدناه بيديه الموثقتين ليُسمِع الجميع وهو ينشد من شعره:

وتَشَكّى النّفْسُ ما صابَ بها،
فاصبري إنَّك من قومٍ صُبُرْ
إنْ نصادفْ مُنْفساً لا تلفنا
فُرُحَ الخيرِ ولا نكبو لضُرّ
أسْدُ غابٍ فإذا ما فزعوا
غيرُ أنكاسٍ ولا هوجٍ هُذُرْ

وليَ الأصـــلُ الـــذي في مثلِـــهِ
يصـــلحُ الآبـــرُ زرعَ المـــؤتبِرْ
وهـــمُ مـــا هـــمْ إذا مـــا لبسُـــوا
نَسْـــجَ داوُدَ لِبـــأسٍ مُحتَضِـــرْ
وتَســـاقَى القَـــوْمُ كأســـاً مُـــرّةً
وعـــلا الخيـــلَ دمـــاءٌ كالشَّـــقِرِ
ورثـــوا الســـؤْدُدَ عـــن آبـــائِهِمْ
ثـــمّ سَـــادُوا سُـــؤدُداً، غَـــيرَ زَمِـــرْ
نحـــنُ في المَشـــتاةِ نـــدعوا الجَفَـــلى
لا تـــرى الآدِبَ فينَـــا ينتقِـــرْ
بجِفـــانٍ، تَعْـــتَري نادينَـــا،
مـــنْ ســـديفٍ حـــيَن هـــاجَ الصِّـــنَّبِرْ
ثـــمّ لا يُخـــزنُ فينـــا لحمُهـــا
إنّـــما يخـــزن لحـــمُ المـــدّخِرْ

لبث القوم صامتين كأن على رؤوسهم الطير. لا يكون هذا الشعر إلّا لشاعر فحل. وهز أبو ضمرة رأسه وقد ارتسمت علامات الرضا على وجهه وقال:

- ما تقولون الآن بعد أن سمعتم فخره بقومه؟ أهذا شعر فتى كره قومه وكرهوه، ثم نبذهم ونبذوه؟ لَوَددتُ لو قيل ذلك فينا.

بدا أبو مرّة متحيّراً لبضع لحظات، ثم قال وقد أخذته العزة برأيه:

- الآن يفتخر بقومه ويفخر بهم وهو بعيد عنهم؟ وقد جرى على ذمّهم وهو فيهم؟ والله ما فعلها إلّا ضنّاً بنفسه وطلباً للسلامة إذ علم أنه لا ينجو إلّا بهم.

ردّ أبو ضمرة:

- وقد يغاضب الرجل قومه لا كرهاً لهم، ولكن لأنه كره منهم قعودهم عن حق مسلوب أو مثلبة تحط من أقدارهم بين العرب. فيكون ذمّاً في ظاهره، وحضّاً وتحريضاً في باطنه. أما سمعتم قول الشاعر يقول في قومه:

لـو كنـت مـن مـازنٍ لم تستبح إبـلي
بنـو اللقيطـةِ مـن ذُهْـل بـن شـيبانا
إذن لقـام بنصـري معشـرٌ خَشِـنٌ
عنـد الحفيظـة إذ ذو لوثـةٍ لانـا
قـومٌ إذا الشـرّ أبـدى ناجذَيْـه لهـم
قـاموا إليـه زرافـاتٍ ووِحـدانا
لا يسـألون أخـاهم حـين ينـدبُهُم
في النائبـات علـى مـا قـال برهانـا
لكـنّ قـومي وإن كـانوا ذوي حَسَـب
ليسـوا مـن الشـرّ في شيء وإنْ هانـا

يجزون مـن ظلـم أهـل الظلـم مغفـرةً

ومــن إسـاءة أهـل السـوء إحسـانا

فليـت لي بهـمُ قومـاً إذا ركبـوا

شـدّوا الإغـارةَ فرسـاناً وركبانـا

توقف أبو ضمرة هنيهة، ثم أردف:

- إن كان لا بد، فانتظروا قافلة هَجَر. فقد دنا موعد عبورها من جوارنا بتجارة القوم. ونحن نتبايع معهم. فإذا نزلوا قريباً منا عرضنا عليهم أمر هذا الفتى لنقطع الشك باليقين. فإن ثبت أنه فتاهم ثم لم يبرأوا منه وطالبوا به، عرضنا عليهم الفداء فيه. وإن كان غير ذلك حزمنا أمرنا فيه.

لم يسع القوم إلا أن يوافقوا. أما طرفة الذي عرف ما انتهى إليه القوم، فلم يكن أقل دهشة من نفسه إذ فخر بقومه بذلك الشعر، من دهشة أبي ضمرة الذي يعلم ما كان من أمره مع قومه. وظلت عبارة أبي مرّة تتردد في ذهنه إذ قال:

«الآن يفتخر بقومه ويفاخر بهم وهو بعيد عنهم، وقد جرى على ذمّهم وهو فيهم». فكيف أنكرهم وانفرد عنهم وهو بين ظهرانيهم، حتى إذا غاب عنهم وغابوا عنه حضروا في حياته على غير ما كان يطلب!

هل غلب عليه حب الحياة وخوف الموت حين وقع الاختبار؟ أم غلب عليه الاعتداد بقومه بعد الذي سمع من كلام أبي مرّة يصغّره ويزري به، وما هي حتى حلّ محلّ تعجّبه وحيرته، شعور

عميق بالانقباض. لقد خرج معتداً بنفسه، يرجو أن يصيب مجداً بمفرده، ليري قومه أي فتى أضاعوا. فكيف يراه أهل قافلة هجر في ذلّ الأسر، ثم يعودون بخبره إلى الناس في بلده؟ وكيف يجدونه وقد صار في حاجة إلى حمايتهم وهو الذي أعلن لهم من قبل أنه مستغنٍ عنهم بنفسه؟ أما الطامّة الكبرى، فهي أن يتبرأوا منه على ما نقموا عليه حتى تداولوا في خلعه. عندئذ يجتمع عليه الهوان مع القتل! لا سلوى له على أيٍّ من الحالين: استنقذوه أم تركوه لهلاكه!

* * *

كان عامر متكوماً على نفسه وقد ذهب في التفكير. تفحّصه طرفة ثم قال:

- تجلّد أيها الرجل

قال عامر بأسى بالغ:

- إن كنت ترجو أن يقيلك قومك، فإني لا أرجو الذي ترجو.

قال طرفة:

- لا أعلم ما الذي أرجوه. وقد استوت عندي الحياة بالموت. ولكني أعلم هذا: إما أن ننجو معاً وإما أن نهلك معاً.

قال عامر:

- وما شأن قومك بي. إنما كان الكلام كلّه عليك وعلى قومك في القافلة.

هَمَّ طرفة أن يردّ عليه، ولكنه استأنف:

عميق بالانقباض. لقد خرج معتداً بنفسه، يرجو أن يصيب مجداً بمفرده، ليري قومه أي فتى أضاعوا. فكيف يراه أهل قافلة هجر في ذلّ الأسر، ثم يعودون بخبره إلى الناس في بلده؟ وكيف يجدونه وقد صار في حاجة إلى حمايتهم وهو الذي أعلن لهم من قبل أنه مستغنٍ عنهم بنفسه؟ أما الطامّة الكبرى، فهي أن يتبرأوا منه على ما نقموا عليه حتى تداولوا في خلعه. عندئذ يجتمع عليه الهوان مع القتل! لا سلوى له على أيٍّ من الحالين: استنقذوه أم تركوه لهلاكه!

* * *

كان عامر متكوماً على نفسه وقد ذهب في التفكير. تفحّصه طرفة ثم قال:

- تجلّد أيها الرجل

قال عامر بأسى بالغ:

- إن كنت ترجو أن يقيلك قومك، فإني لا أرجو الذي ترجو.

قال طرفة:

- لا أعلم ما الذي أرجوه. وقد استوت عندي الحياة بالموت. ولكني أعلم هذا: إما أن ننجو معاً وإما أن نهلك معاً.

قال عامر:

- وما شأن قومك بي. إنما كان الكلام كلّه عليك وعلى قومك في القافلة.

هَمَّ طرفة أن يردّ عليه، ولكنه استأنف:

- لا والله ما أخاف الموت. وحين لقيتك كنت كالهالك. ولكنها حسرة الفوت عند حصول الأمل واقتراب الطلب. أحين صرت على بُعد فرسخين من منية النفس حيل بيني وبينها؟ اليأس يريح يا طرفة... أما الرجاء الذي تعقبه الخيبة، فمؤلم ثقيل. وهذا حالي.

أطرق من جديد، ثم عاد يحدِّث نفسه:

- تُرى تنعاني حين يأتيها الخبر؟ هل تعدّد عليّ في نساء الحيّ؛ هل تعزف عن الرجال أبد الدهر؟ هل يندم أبوها على أنه ضيعني من أجل الأباعر، وأنا ابن أخيه؟ هل يجتمع عليه الرجال يلومونه ويعيّرونه؟ لو علمت الآن أن هذا كائن كأني أراه رأي العين، إذن لكان ذلك عزاء الميت قبل موته.. ولكن، هيهات هيهات!

ذهب طرفة في التأمّل والتفكير، وتمثل له شيطان شعره يعينه على همّه:

فـإن مِـتُّ فـانعيني بـما أنـا أهلُـه
وشـقّي عـليَّ الجيـبَ يـا ابنـةَ مَعْبـدِ
ولا تجعلينـي كـامرئٍ لـيس همُّـه
كهمّـي ولا يُغنـي غَنـائي ومشـهدي
بطـيءٍ عـن الجُـلّى، سريـعٍ إلى الخنـى
ذَلـولٍ بأجمـاع الرجـالِ مُلَهَّـدِ
فلـو كنـت وَغْـلاً في الرجـال لَضَـرّني
عـداوةُ ذي الأصـحاب والمتوحّـدِ

ولكــن نفــى عنــي الرجــالَ جــراءتي

علــيهم، وإقــدامي وصــدقي ومَحْتِــدِي

لعمــرك مــا أمــري عــليَّ بغُمّــةٍ

نهــاري، ولا لــيلي عــليَّ بسَــرْمَدِ

أرى المــوتَ أعــدادَ النفــوس ولا أرى

بعيــداً غــداً، مــا أقــربَ اليــوم مــن غَــدِ!

* * *

(5)

أوقفه القوم على أطراف الحيّ في انتظار وصول أمير قافلة هَجَر مع نفر من أصحابه. وما هي حتى أقبلوا يخبّون بخيولهم. ترجلوا واقترب رئيسهم ينظر في طرفة ويتفحّصه. وقد عرفه طرفة من أول نزوله، فقد كان أحد رفقاء الحانة وندماء السّمر. أما هو فمرّت لحظات وهو ينظر في وجهه وهيئته، فقد غيرته أيام التطواف والتصعلك، فطالت لحيته، وانتفش شعره ولوحته الشمس، بينما صوّب الآخرون أنظارهم إلى الرجلين ترقباً، قبل أن يتلفت أمير القافلة إليهم ويصيح:

- ثكلتكم أمهاتكم ما صنعتم بفتانا وشاعرنا طرفة بن العبد... فأيّ داهية رمتكم به؟

هز أبو ضمرة رأسه وقد انفرجت أساريره، بينما أجاب أبو مرّة بغلظته المعهودة:

- الداهية التي رمتكم به قبلنا.

أجاب أمير القافلة:

- ما استنصرنا بكم على دواهينا.

ردّ أبو مرة:

- وإذ لم تقطعوها بأيديكم رميتم بها الناس، فاسترحتم ولم يستريحوا؟

قال أمير القافلة بحزم:

- لا نطيل الجدال في صاحبنا. فكوا وثاقه لا أبا لكم واخلوا سبيله من فوركم، فإن لم تفعلوا فلنرجعنّ عليكم بخيول تملأها عليكم عجاجاً، وسيوف يقطر منها الموت، ورايات ترد بيضاء وتصدر حمراء. ومن ورائها كتائب عمرو بن هند.

قال أبو مرّة:

- ليس لعمرو بن هند سلطان علينا.

- ولكننا في عهده وسلطانه. فحربنا حربُه، ولا نلقى من عدوان إلّا لقيه معنا.

هنا غيّر أبو مرّة من لهجته وقال:

- يا أخا بكر، إن صاحبكم قد عدا على حمانا وأخذ من إبلنا... فهل كنا نتركه وقد ظفرنا به حتى نَقيدَ أنفسنا منه؟ فتلك هي طريقة العرب، وأنتم عليها.

قال البكريّ:

- أما الإبل فقد علمنا أنكم أخذتموها ضعفين أو أكثر. ولكن، إن شئتم فاديناه بنصيب من بضاعتنا: تمر هجر وجلودها المدبوغة وسيوفها الهنديّة والعاج الذي نستجلبه من الهند.

سكت القوم هنيهة، ثم تدخّل أبو ضمرة:

- قد رضينا منك يا أخا بكر.

تحدّث طرفة لأول مرة:

- ويدخل في هذا صاحبي.

قال أبو مرة:

- أمّا ذاك فلا شأن لكم به.

نظر طرفة في عينيّ صاحبه القديم يستحثّه، فجذبه هذا وانتحى به جانباً وهمس له:

- أوَلم يكفك ما احتملنا من غرمك، وأنت الذي ما زلت تعيب على قومك وتلحوهم، حتى تطلب مثله لفاتكٍ مجهول تسميه صاحبك؟ قومه أَوْلى به.

أجاب طرفة:

- بل صار مني بمثابة الأخ. ولستُ خيراً منه وإن علا نسبي وانحط نسبه، ولا دمي بأكرم من دمه. فإما أن ننجو معاً، أو نهلك معاً. أما ما ذكرت من غرمكم لي، فاعلم أني لم أُشر عليهم أن يرجعوا إليكم بخبري، ولم أحْفَل بهلاكي لأدعوكم إلى نجدتي.

قال البكريّ:

- دعانا حق الدم إذ توصلوا إلينا بالخبر. وأشد علينا من مغرم الفداء، ما لحقنا من منقصة فِعْلك. فتى من سادتنا يعمل عمل الصعاليك؟

قال طرفة:

- حق الدم... وأكثر منه خشية العار والمنقصة، أو... مغرم الحرب!

ردّ البكري:

- وهذا من جنايتك على نفسك وقومك. فماذا تطلب بعد؟

أجاب طرفة:

- ما سمعتَه.

- تلك البضائع أمانات عندي لأصحابها، وإنما نويت أن أقسم لهم من بضائع أخيك وأعمامك وأخوالك. ولا أدري هل يرضون ذلك حين يعلمون أم يغرمونني إياها. ولكني أذكر صحبتنا القديمة، ولا أنسى كرمك وإنفاقك عليّ حين كنت بلا مال، وهذا وقت الوفاء.

خفق قلب طرفة حين سمع الرجل يذكر أخاه وأهله. ولكنه أخّر السؤال حتى يفرغ مما هو فيه الآن. وكان القوم ينتظرون مترقبين. ثم مشى إليهم البكري وقال:

- الفداء على الاثنين. وأزيدكم فقط من مال أخيه الذي معي.

وما ألحّ صاحبنا على ذلك إلّا نخوة وشهامة يُعرَف بهما سادةُ الناس وأشرافهم. فهل يكون أسيركم أكثر نخوةً من آسريه؟

قال أبو ضمرة:

- قلت صادقاً مُصدَّقاً يا أخا بكر. قد رضينا.

بينما ذهب بعض القوم ليحلوا وثاق عامر ويرجعوا به، تنحّى طرفة بصاحبه البكريّ وسأل:

- هل تعلم شيئاً من خبر أهلي؟ أمي وأختي الخرنق وأخي معبد؟

أجاب:

- لو شئت لرجعت معي إليهم فسكنت خواطرهم وكانوا أسعد الناس بك. فإني علمت أن أمك لم تَرْقَأ عينها عليك مذ فارقْتها وما زالت تسأل الركبان عن خبر منك. أما معبد فقد اجتهد في ماله وزرعه وإبله حتى صار من أغنى الناس، وتزوّج امرأة من أشراف القوم. وأما أختك فتزوجت من ابن عمك عبد عمرو بن بشر، وخرج بها إلى الحيرة ليكون في ندماء عمرو بن هند.

- وخالي المتلمّس؟

- في الحيرة أيضاً...

ارتسمت على وجه طرفة ابتسامة متهكمة وقال:

- للسبب نفسه... منادمة عمرو بن هند... بل قل: خدمته والوقوف على حاجته.

أرسل إليه البكري نظرة استنكار وقال:

- عمرو بن هند الذي تزري الآن بمنادمته، أو خدمته كما تقول، كان معنا هنا وأنا أخاطب غطفان فيك. وإنك لتدين له بنجاتك بقدر ما تدين لقومك! اذكر هذا. ودعك من أوهامك القديمة. والآن ألا تعود معنا إلى أهلك، فهم أَوْلى بك وأنت أَوْلى بهم.

أطرق طرفة شارداً وهو يهز رأسه بالنفي. ومضى البكري، حتى إذا صار على بُعد خطوات، ناداه طرفة ثم اقترب منه، تلفت يميناً وشمالاً ثم همس له:

- أستعهدك عهداً لي عليه ذمتك وذمة أبيك. لا تذكر للناس هناك أنك رأيتني على هذه الهيئة ويداي في الوثاق! هل تعاهدني على ذلك؟

رمقه البكري، ثم هز رأسه بالموافقة، ومضى في حال سبيله، وطرفة يشيعه بأنظاره.

منذ اليوم لن يكتم نسبه: طرفة بن العبد البكريّ... الاسم الذي ذاع في الآفاق مع شعره. فهل يتعرّف بشعره دون رسمه بين الناس، وهو الذي سيبقى منه حين تنقضي الحياة وتختفي الرسوم والمنازل ولا يبقى منها إلا الأثر والأطلال!

* * *

(6)

لبث يفكّر بكلام البكري أمير القافلة، وهو يبتعد مع عامر عن منازل غطفان. لم يخطئ الرجل. عدوُّه في موطنه كان حاميه في غربته. ومن كان في حكمه لا يأمن بطشه، ولكنه يأمن به بطش الآخرين!!

فأي مفارقة تلك؟ وكيف عساه يفر من أقدار قاهرة لا يعرف معها على أيّ جنبيه ينام. يريد مغانم حريته، ولكن مغارمها ثقيلة لا فرار منها. ومغانم الأمن في ظل الجماعة لا تأتي إلّا مع مغارم ثقيلة أيضاً تقيّد روحه. فأين يذهب؟ وهل من سبيل إلى الجمع بين مغانم الحالين دون مغارمهما وتكاليفهما؟ هل من سبيل بين السبيلين المتفارقين فلا يجني أحدهما على الآخر ولا يستوفي حقه منه؟ وإنه ليجد الآن نفسه في حيرة أشد مما كان فيه من قبل.

حين اقتربا من الشعب الذي يؤويهما وصاحبيهما حنظلة وسعد، توقف عامر. نظر إليه طرفة مستطلعاً:

- ما يوقفك؟

أرسل عامر نظرة في البعيد، ثم قال:

- قد طالت غيبتي عن أهلي. أريد أن أتابع المسير إليهم، فأرى ما فعل الله بأخي عمرو، وتطمئن نفسه بأني ما زلت حيّاً... و... أرى ابنة عمّي التي شقيت بحبها، فلا تظنّ أني سلوتها، ويعلم أبوها أني ما زلت على العهد الذي بيننا.

هز طرفة رأسه متفهّماً، وسأل:

- وتعود إلينا بعد ذلك؟

أجاب:

- مسيرة الطريق ويومين فوقها، ثم أقفل راجعاً إليكم.

- امضِ راشداً إذن.. وعُدْ حميداً.

استقبل حنظلة وسعد طرفة بفرح غامر، وكان قد خامرهما اليأس من عودته بعد طول الغياب دون أن يعلما من خبره وخبر عامر شيئاً، على الرغم من التجوال والبحث والسؤال، حتى هَمَّا أن يغادرا المكان. ولكنهما لحظا تغيّر حاله وأنه يطيل التفكير متنحياً عنهما في الشّعب، ولا يبدي من الهمّة والنشاط كالذي كان يبديه. فعلما أن المحنة التي اختبرها قد تركت أثرها فيه. وآثرا ألّا يرهقاه بالسؤال عمّا يعتريه.

* * *

بعد عشرة أيام على غياب عامر، أطلّ عليهم من جانب الشعب ماشياً يترنّح. فهبّوا إليه مهرولين، حتى إذا وصلوا إليه انهار إلى الأرض، ورأوا سهماً قد نفذ في ظهره. فلما نزعوه صاح متوجعاً صيحة هائلة ترددت في الشِّعب. ثم حملوه ووضعوه على وطاء. وأسرع سعد ليأتي بخرق وماء لتنظيف الجرح الغائر. وتحدث عامر بصوت ثقيل متقطع، فعلموا منه أن وسم جواده قد وشى به كما وشى وسم الإبل من قبل، فأدركه صاحب الجواد مع نفر من قومه حين صار قريباً من الشِّعب. فأصابوه وظنوا أنه قد هلك، وعادوا بالجواد. حتى إذا ابتعدوا تحامل على نفسه حتى أتاهم ماشياً.

قال طرفة:

- لا بأس عليك يا عامر. لي علم بما يُصلح جرحك.

لاحَ طيف ابتسامة باهتة على وجه عامر، وهمس بصوت متحشرج:

- ما وقع هذا السهم في ظهري حتى وقع قبله سهم في قلبي، فلم يعد لي حاجة بالعيش.

أدرك طرفة أنه يلمح إلى ابنة عمه، فسأل:

- ابنة عمك تعني؟

علم منه أنه وجد أن عمّه قد زوّجها لرجل غني من قبيلة أخرى، وأن زوجها قد تحمّلها قبل يومين من وصوله.

رفّ جفنا عامر بعد قليل، ثم تجمّدت عيناه على السماء، وخمدت أنفاسه.

حين دفنوه في الخلاء، وقف طرفة على قبره وحثا عليه حثوة من التراب، وقال:

- لا أقول كما يقولون في الميت إذا دفنوه: لا تَبْعد. بل أقول: ابعد يا عامر... ابعد عن حياة لم تَعِدك إلّا بالشقاء والظلم. ابعد عن قوم ضيّعوك... فالأرض أرأف بك منهم.

* * *

عزم طرفة على الذهاب إلى حيّ عامر، فيخبر أخاه بموته، ثم يعود به إلى موضع قبره إن شاء ليقف عليه.

نزل عمرو، أخو عامر، إلى الأرض حين ألقى عليه طرفة الخبر، وذرف دموعاً غزيرة وقال:

- ليتني كنت شاعراً مثلك فأرثيه بشعر تحفظه العرب، ويكون سُبّةً على من أضاعوه. قد اجتمع عليه موتان. الأول كسر قلبه، ولعل الثاني قد أراحه.

حين وصل طرفة مع عامر إلى موضع القبر، فوجئ بقبر جديد إلى جانبه، فأخذته الدهشة والحيرة. ثم لمح حنظلة يقف وحده على بُعد ينظر إليهما بوجه حزين منقبض.

أدرك طرفة أن هذا قبر سعد إلى جانب قبر عامر. ثم شرح حنظلة بصوت مفعم بالأسى:

- خرجنا نتصيّد عشاءنا. فما هي حتى أحاط بنا أولياء قتيله وقد ميّزوه. فدفعوني بعيداً عنه يقولون: «ليس لنا شأن بك. إنما نريد هذا الهجين الذي قتل فتانا وما زلنا نبحث عنه في كل مكان، وآلينا لا نأخذ العزاء في فتانا حتى نثأر له». وما هي حتى تناوشته السيوف. وانطلقوا يقولون: أدركنا ثأرنا وشفينا صدورنا. فرأيت أن أدفنه إلى جانب صاحبه كما ترى.

لأول مرة تلتمع دمعة جامدة عزيزة في عيني طرفة وهو يقلب بصره بين السماء والأرض. وهمس:

- وَتَروه في أخيه أولاً، فلما أصاب ثأره، طلبوا ثأرهم منه وأدركوه. فكان الواتر الموتور معاً. فأين العدل؟ أين العدل؟ لا يستوي الناس فوق الأرض، ولكن... يستوون تحتها!

* * *

(7)

منذ نجا من غطفان، لبث يحدِّث نفسه بالرحيل. فالحرية التي وعدته بها الصحراء لم تكن غير وهم وخديعة. والناس هم الناس في البدو أو في الحضر. تعرف منهم وتنكر؛ يعطونك بقدر ما يسلبونك، ويحيونك بقدر ما يقتلونك. والآن يأتي مقتل عامر وسعد، فيحسم أمره.

خرج معه حنظلة وعمرو يشيعانه. وآثر أن يعرّج على المكان الذي كانت فيه منازل قوم خولة. تلك الأعرابية الجميلة القويّة التي هزم جمالها لفح الشمس في الهجير، ثم هزمت صاحبيه: حنظلةَ وسعداً حين ذبّت عن بعيريها وخادمها بتلك العصا الغليظة، ثم هزمته هو بحجة اللسان القاطع الحكيم وهو الشاعر البليغ الذي لا يفحمه أحد في حق أو باطل. وهو الذي أحرج المسيّب العلسيّ حين سمعه ينشد شعراً وصف فيه الجمل بصفة الناقة: «استنوق الجمل» حتى ذهبت مَثَلاً. وها هو وصاحباه يستنوقون أمام هذه الحرّة الجريئة الرائعة. ولو شاءت في تلك الساعة لبذل لها ما أصاب من الإبل. ثم لم تفارق مخيلته بعدُ. فصار يخرج أحياناً يلتمس مطارحها ليراها من بعيد تحتطب أو تورد إبلها مع خادمها ثم صار يتجرّأ فيدنو منها ويخاطبها ويعينها في بعض عملها، فلم تكن تصدّه، إذ وقع في نفسها كما وقعت في نفسه. وأمِنَت بقوة نفسها وعفافها بقدر ما أمنت بشهامته. وعلى الرغم من أنه لم يبح لها بنسبه وخبره فقد أدركت بفراستها أنه شريف المحتد، حضريّ الأصل. يدلّ على ذلك

سمته وكلامه ومسلكه. وربما تساءلت في نفسها ما الذي رمى بمثله في صحراء العرب مع ذؤبانها. ولكنها آثرت ألا تسأل حتى يبوح تطوعاً. فلكل أسبابه ودواعيه. والتطفل ليس بالخلق الحميد. وحسبها منه الآن أن تأنس به ويبثها من غزله وعقله وحكمته التي تفوق عمره. ولم يفتها أن تستشعر حزناً دفيناً يطوي عليه جوانحه، وقلقاً مثل قلق الحصان البريّ الذي يركب الريح ولا يمتطيه أحد. وقد أسرها كل ذلك منه. ففي الغموض أحياناً بعض السحر!

ارتسمت على وجهه ابتسامة غامضة وهو يجيل بصره في أطلال المنازل متأملاً مسترجعاً صورتها وذكرياته معها. فقد تذكر حين قام من جلسته على الرمل يوماً فخذلته ساقه وأخذ يتحسسها، فسألته. أجاب:

- خَدِرت ساقي، فلا أشعر بها.

قالت:

- يقولون: من خَدِرت ساقه فليذكر أحبّ الناس إليه وهو يمسح عليها. فإن ذلك يُذهِب الخَدَر.

أغمض عينيه، وعاد يمسح على ساقه. وما هي حتى استقام عليها، وقال:

- إي والله... لقد صدقوا.

نظرت إليه مبتسمة. وبعد تردد سألت:

- من ذَكَرْت؟

أرسل إليها نظرة عميقة مفعمة بالحب، نابت عن كلامه، وفهمت، وخفق قلبها له كما لم يخفق من قبل.

ولكن، لكل شيء آخر. وحياة العرب وقصص العشاق مليئة بالنهايات المفتوحة كانفتاح الصحراء، وبالتحولات التي تأتي مع تحوّلات المواسم والدّيار والترحّل الذي يخلف أطلالاً وآثاراً يقف عليها العاشق المحروم المكلوم كما يقف طرفة الآن. والتحوّل عن المكان يمكن في الغالب أن تُمليه مطالب الحياة وأسبابها فيورث هماً وأوجاعاً عظيمة. ولكنه قد يكون أيضاً خياراً طوعيّاً ليكون الترحل عن المكان ترحّلاً عن الهم وأسبابه! ألم يقل الشاعر:

غيرَ أنّي قد أستعين على الهمِّ
إذا خَفّ بالثّويّ النّجاءُ
بزفوفٍ كأنها هِقلةٌ
أمُّ رئالٍ دَوِيّةٌ سقفاءُ
أتلهّى بها الهواجرَ إذ كلُّ
ابنِ همٍّ بَلِيّةٌ عمياءُ

ها هو شاعر يستعين على همّه بناقة سريعة سرعة النعامة الفزعة على أولادها في المفاوز المفتوحة.

أين طرفة الآن من ذلك؟

كعادة الحياة معه، تجتمع الأضداد فيه. ارتحل عن قومه ارتحال الرجل عن أسباب همّه، ولكن الترحّل ما زال يورثه همّاً في الوقت نفسه، كما هي حاله الآن وهو يقف على أطلال خولة وعشقه لها.

تلمس عقداً من الخرز يطوق عنقه. وتحسس خرزة زرقاء أكبر من غيرها واسترجع موقف الوداع الأخير، حين قال لها:

- لي عليك حق المحب المحروم.

سألت:

- وما ذاك؟

أشار إلى تلك الخرزة التي تتدلّى من طوق عنقها، وقال:

- خرزة السلوان.

وكانت تلك من عادة العشاق إذا فارقوا معشوقاتهم، تعطي الحبيبة أحدهم خرزة يُظنُّ أنها تعينه على السلوى بعد الفراق. فلماذا لا يجد السلوان الآن وهو يطوف بين الأطلال؟ ولماذا يكون هذا حظّه من النساء والحياة: مواجد وأشواق مقهورة وشعر وأطلال... أطلال.. أطلال... أطلال! ولكنّ أحداً لم يقهره على ذلك، إنما هو خياره وإرادته. لعل هذا عزاؤه الوحيد، لا بأس إذن، غابت خولة عن عينيه إلى الأبد، ولكنها أيضاً ستبقى حاضرة إلى الأبد في مطلع واحدة من أعظم قصائد العرب الطويلة، فيتمثلها الناس كلما رددوا ذلك الشعر، كلّ يصوّرها على حدّ خياله، لتكون مئات النساء بدلاً من امرأة واحدة:

لخولـــةَ أطـــلالٌ ببرقـــة ثَهْمَـــدِ

تلـوح كبـاقي الوشـم في ظـاهر اليـدِ

وقوفـاً بهـا صـحبي عـليّ مَطـيَّهمْ

يقولـــون لا تهلِـــك أسـى وتجلَّـدِ

لكأن هذا المطلع وسم طرفة الذي يدلّ عليه ويذْكُرُه الناس به إلى الأبد. أما وسم الإبل الذي وشى به لغطفان، ووسم الجواد الذي وشى بعامر حتى أرداه، فسيذهبان سريعاً ويذهب معهما أصحابهما.

خولة! لن تكبر ولن تشيخ في مخيلته، وكذلك الشعر الذي يذكرها في مخيلة العرب. ولئن كان وسم الدابة يرسم بالكيّ، للتمييز والردع، فإن وسم طرفة تستقبله الأرواح المعذّبة بلا حجاب، لتجد فيه سلواها وتتصبر به على عاديات الدهر وأشواق العاشقين الذين حيلَ بينهم وبين معشوقاتهم:

لِخَولَــةَ بِــالأَجزاعِ مِــن إِضَــمٍ طَلَــل
وَبِالسَــفحِ مِــن قَــوٍّ مُقــامٌ وَمُحتَمَــل
فَــلا زالَ غَيــثٌ مِــن رَبيــعٍ وَصَــيِّفٍ
عَــلى دارِهــا حَيــثُ اِستَقَرَّت لَــهُ زَجَــل
إِذا قُلــتُ هَــل يَســلو اللُبانَــةَ عاشِــقٌ
تَمُــرُّ شُــؤونُ الحُــبِّ مِــن خَولَــةَ الأَوَل
وَمــا زادَكَ الشَــكوى إِلى مُتَنكِّــرٍ
تَظَــلُّ بِــهِ تَبكــي وَلَــيسَ بِــهِ مَظَــل
مَتــى تَــرَ يَومــاً عَرصَــةً مِــن دِيارِهــا
وَلَــو فَــرطَ حَــولٍ تَسجُمُ العَــينُ أَو تُهَــل
إِذا جــاءَ مــا لا بُــدَّ مِنــهُ فَمَرحَبــاً
بِــهِ حــينَ يَــأتي لا كِــذابٌ وَلا عِلَــل

* * *

في الحيرة

ثائر بلا ثورة

(1)

الحيرة! قاعدة ملك المناذرة الذين لم يسودوا الناس بعددهم، ولكن بأموالهم وخيرات بلادهم التي قسموها بينهم وبين الأكاسرة. سادة على العرب في جوارهم، وخدم للأكاسرة من ورائهم، ذلة للأعجمي المتغلّب أورثتهم عِزّة على أبناء جلدتهم! إذا دخل على ملكهم أحد من العرب كان عليه أن يسجد بين يديه أو ينحني حتى يمسّ الأرض، فإذا صار ملكهم عند كسرى سجد له سجودَ الناس له. ولعلّه لذلك لم يكن، إذا دخل على كسرى، ليصحب معه أحداً من أعوانه، كيلا يروه في حال خضوعه، ولعله لذلك السبب أيضاً كان يُفرط في طغيانه وجبروته في ملكه، ليعوّض عما يتسامع به الناس من ذلّه لكسرى!

كلّ هذه الخواطر كانت تدور في ذهنه وهو يتجوّل في الأسواق العظيمة والطرقات الواسعة المرصوفة والدور التي لم يرَ مثلها من قبل. هنا تختلط الأعراق: عرب وعجم ونَبَط فلاحون من العصور الغابرة، ومع اختلاط الأعراق اختلاط الألسنة.

بدا له المشهد غاية في الجمال. فلن تجد شيئاً يضاهي هذا أو يقاربه في أي مكان من جزيرة العرب وقراها المشهورة، لا في هجر والبحرين، ولا في اليمن وحضرموت، ولا في مكة والطائف ويثرب. وأين هذه كلها مما رأى هنا من الأنهار الجارية والتربة

الحسنة والزرع والنخيل والأعناب! نعم، لا يضاهي ذلك إلا مملكة الغساسنة على أطراف الشام كما يخبر من زاروها واتَّجروا فيها. وأولئك سادوا في بلادهم بما ساد به المناذرة في بلادهم، ولكنه الخضوع للرومي هناك، والاعتصام بقوته وسطوته. هذا حظ العرب: مملكتان على الأطراف، إحداهما في جوار الفرس، وأخرى في جوار الروم. وبهما يدفع الفرس والروم غارات العرب الجفاة الحفاة، أهل الإبل والشاء، حتى إذا تقاتل الروم والفرس قدّموا هؤلاء وأولئك بين يدي جيوشهما ليتلقوا عنها الصدمة الأولى!

نعم جمال أخّاذ ووفرة عظيمة، لولا أنها تخفي وراءها قبحاً وهوناً وذلاً؛ قوّة خلقها الضعف، واستكبار خلقته الذلّة! وبين هذا وذاك يكدح جلّ العرب في جزيرتهم، تطوّح بهم المواسم على مشيئتها، ويغزو بعضهم بعضاً على مشيئته. لا يتعلقون بمكان إلّا تحوّلوا عنه كرهاً، فكثر ذكر الأمكنة بأسمائها أو أوصافها في شعرهم مقترنةً بالحنين. والحنين هو الماضي، فهم أسرى الماضي الذي يكثرون التلفت إليه. وكيف يصنع من لا يعرف غده لينظر إليه أمامه؟ أهذا يسرفون في ذكر الآباء والأسلاف ويعظّمون من الماضي ما يدعونه بأيام العرب، وما هي إلا حروب ومهالك قتلت أبناءهم في غير سبب عظيم، ثم جعلوها أمجاداً موروثة!

حين انتهت به خواطره إلى هذا الحد، كان قد وصل إلى وجهته التي سأل عنها. ولم يكن منزل خاله المتلمس في الحيرة بالذي يضل السائل إليه، وهو الشاعر المشهور ونديم الملك.

وقف أمام الباب الخشبي، وتردد قليلاً قبل أن يطرقه.

صاح المتلمس صيحة الدهشة الغامرة إذ رأى ابن أخته التائه في الأرض منذ أمد طويل، يقف الآن أمامه: «أهذا أنت حقاً يا ابن أخت؟ ما أسعدني اليوم بك»، واحتضنه بحرارة بالغة.

قدّم له طعاماً وشراباً في آنية أنيقة، وإذ فرغا منهما وجلسا على فراش وثير، أين منه خشونة وطائه في صحراء العرب ومفاوزها، ورآه المتلمس يطيل التلفت والنظر في البيت ومتاعه، فعلم ما في نفسه، فسبقه إلى الكلام بما يشبه الاعتراف ليقطع عليه حصاد لسانه السليط:

- بلى. هو من عطايا الملك، قل ما شئت. فهل وجدت أنت في تجوالك في البوادي ما يغنيك عن هذا وما كانت تطمح إليه نفسك؟

اكتفى طرفة بابتسامة باهتة. وعاد المتلمس يسأل:

- وما الذي حملك إلى الحيرة؟ من شظف البداوة إلى جنان الأرض ونعيمها؟ وكيف علمت أني فيها حتى التمستني؟

أجاب طرفة دون أن يتحوّل ببصره إلى خاله:

- أما علمتَ أن شيطانك يحدِّث شيطاني، وشيطاني يحدِّثني!

ضحك الملتمس. فهذا هو طرفة وطريقته، وقال:

- هل تصدّق حقاً أن لكل شاعر شيطاناً يوحي له شعره؟ فما فَضْلُ أحدنا إذن إذ هو ينطق عن شيطانه؟ إنما هي خرافات الأولين وأساطيرهم. أو هم الشعراء أنفسهم اخترعوا هذا ليميّزوا أنفسهم عن سائر الناس بالخرافة العجيبة!

كان من المعروف عن المتلمس استهزاؤه بعقائد العرب في الأوثان والخوارق. ولا يؤمن بلات ولا عزّى ولا مناة. فكان يُغضب بذلك

كثيراً من الناس. ولعله قد ورث بعض ذلك عن أحد أجداده الذي كان نصرانياً يدعى «عبد المسيح». ولكن المتلمس نفسه لم يكن على دين أحد، ولا يستشير في رأيه غير نفسه.

أما طرفة فلم يكن ليُعنّي نفسه بالتفكير في الأمر ليقطع برأي.

ثم قال المتلمس:

- إن كان شيطانك قد أعلمك بمكاني نقلاً عن شيطاني، فلا بد أنه أعلمك أن أختك الخرنق قد تزوجت عبد عمرو بن بشر، وأنه أقام بها هنا في الحيرة ليكون في جوار عمرو بن هند... فهو دائم الصحبة له... أما أنا فأتردد بين هَجَر والحيرة.

قال طرفة:

- تعني دائم الخدمة له... نعم،علمت. ولم يسرّني أن تتزوج أختي ذلك الرقيع السّمج الذي يتخلّع في مشيته كالنساء، وإذا تحدّث لم يكد يبين... يقدّمه الطمع ويؤخّره الفزع.

قال المتلمس:

- حسبك، ترفق بالرجل، فهو ابن عمك، وقد صار زوجاً لأختك. ألهذا آثرت أن تأتيني قبل أن تأتي بيتها؟

لم يجب طرفة عن السؤال كأنه لم يسمعه، وتابع:

- كيف رَضِيت الخرنق به على عقلها وجمالها وسموّ نفسها؟ هل قهرها أخي معبد عليه؟

هز المتلمس رأسه بالنفي، ثم قال:

- قد علمت حق ابن العم في ابنة عمّه!

أعادت العبارة إلى ذهنه قصة صاحبة عامر الذي لم يشفع له ذلك الحق مع فقره. فاكتسى وجهه بالحزن، فأضاف إلى كلام خاله:

- لِمَ لا تقول إنه كثير المال أيضاً؟

أجاب المتلمس:

- هو كذلك حقاً.

- ما ظننت أن الخرنق تُحكِّم المال والغنى في رأيها! فما الذي دهاها؟

قال المتلمس:

- دعك من هذا الآن. نبيت الليلة، ثم أصحبك غداً إلى بيتها، فتسألها كما تشاء. ولتكونَنَّ أسعد الناس بك.

* * *

لم تصدّق عينيها وهي تراه يقف أمام الباب مع خالها. وتجمّدت لحظة في مكانها قبل أن تقبل عليه وتحتضنه طويلاً كأنها تخشى أن تفقده من جديد، وشعر بدموعها الحارّة على عنقه. فأخذ يربّت عليها حتى انحسرت عنها صدمة اللقاء غير الموعود، فرجعت بوجهها تتأمله وتتحسس لحيته وشعره.

هذا أخوها العائد من التيه المتعمّد. وما كان لها أن تستشعر أنه ما يزال في متاهته، يخرج من تيه إلى تيه: من هَجَر والبحرين إلى

صحارى نجد والحجاز إلى الحيرة الآن؛ الحيرةُ والحَيْرَة، تقارب اللفظان ومعهما المعنى في وجدانه.

بعد سويعات استأذن المتلمس في الخروج، والتقت عيناه بعيني طرفة الذي قال بنظرته ما آثر الآن ألا يقوله بلسانه: عمرو بن هند، والوقوف ببابه على شرط انتظار الإذن الذي قد يأتي وقد لا يأتي!

لم يكن زوج الخرنق في البيت. ولما وجد طرفة أنها لم تذكره بكلمة واحدة منذ دخل عليها، أخذ يستطلعها بنظره، حتى قال أخيراً:

- ما بالك لم تذكري زوجك حتى الآن؟

حاولت أن تداري على نفسها فقالت:

- قدّرتُ أن خالي المتلمس لم يغادر خبراً من أخباره حتى أضجرك.

اقتحم عينيها بنظرة سابرة، فأطرقت وقد اعتراها الوجوم.

قال طرفة:

- هل قهرك معبد عليه؟ أو بعض أعمامنا؟

هزت رأسها بالنفي، ثم همست:

- إنه ابن عمنا على كل حال.

ردّ طرفة بشيء من التهكم

- وابن العم أحق بابنة عمه! هه! هل أغراك مالُه؟

اهتزت ملامحها وانقبضت اعتراضاً على الفكرة:

- ليست أختك بالتي تُقبل على طمع.

قال:

- هذا ظني بك.

قال:

- فلِمَ؟

أجابت:

- حكمت الأقدار، وأخطأت الظنّ في نفسي! لم تغرني به خصلة، ولم تصدني عنه خصلة أكرهها.

قال:

- حتى تزوجت به وخبرتِ معدنه!

قالت:

- بل وجدته كما ظننت... لا خصلة فيه أحبها، ولا خصلة فيه أبغضها. ثم أدركت أن هذه صفة الرجل الخامل الذي لا يُرجى خيره ولا يُخشى شرّه. ومثله لا يملأ عين المرأة التي تسمو إلى رجل عظيم النفس خفيف في فراشه، ثقيل عل ظهر جواده، إذا مشى ملأ بُرْديه وأشار إليه الناس. ولكني لم أدرك هذا حتى صرت زوجه، ومضت الأقدار. كان ينبغي أن أطيع رأيك القديم فيه، فما زلت تلحوه وتهزأ به وتستثقله. أنت أحكم مني وأعلم.

هز رأسه واكتسى وجهه بالوجوم.

* * *

كان الملتمس قد لقي عبد عمرو بن بشر في إيوان عمرو بن هند، فأخبره بوصول طرفة. فلم يُبْدِ شيئاً من الحماس. ولكنه دارى مشاعره حين لقي طرفة في بيته، وتظاهر بالفرح وأسرف في الترحيب.

وحين فرغوا من تناول العشاء، وجلسوا لتبادل الحديث والأخبار، بقي طرفة صامتاً، بينما استرسل زوج أخته في الثرثرة دون توقف، متباهياً بصلته بعمرو بن هند، وأسهب في ذكر نوادر من قوته وسلطانه. ولم يكن ليرى في أخبار بطشه وتجبّره ما يشينه، فهذه كلّها من رسوم المُلْك العظيم والقوة القاهرة. وقد ظن أنه في ذلك يباهي بنفسه أيضاً. فالأسد الذي يأكل فرائسه يؤويه في عرينه، ويترك له من بقية طعامه، ويخشاه الناس بخشية سيّده. وهو مع نفر مخصوص من دون الناس، يصحبه في يوم نعيمه ويوم بؤسه، فهو في مأمن منه ومأمن من الناس! فما الذي يطلبه الرجل أكثر من هذا؟

كان طرفة يستمع ويتميز غيظاً. لم يحبّ الرجل في يوم من الأيام، أما الآن فقد شعر بأنه يبغضه بُغْضَه لكل ما يسقط مروءة الرجل. ووجد أنه جمعها كلها في شخصه!

ثم أحب أن يسوق طُرْفَةً مما وقع أمامه من الملك في أحد أيام بؤسه. فساقها وهو يضحك ويظن أنه يُضْحك جليسه بها. وذلك أن الملك خرج إلى البر في ذلك اليوم، فلقي كهلاً ليس من أهل المكان، لا يدري أيّ شؤم رماه في طريق الملك. قاطعه طرفة قبل أن يكمل وقد نفد صبره:

- والأرض التي يخرج إليها ملكك في يوم بؤسه وصيده، هل يعلم الناس حدودها فيجتنبوها؟

أجاب عبد عمرو دون تلجلج:

- كل الأرض موطن مباح للملك وندمائه. من يُحَدِّد للملك سيره ووجهته؟ أنّى مضى به جواده فهو حلال له، حرام على غيره... ولكن ألا تدعني أكمل الخبر؟

قال طرفة متبرماً:

- ولِمَ تكمل؟ خاتمة معروفة. ألم يكن ذاك يوم بؤسه؟

قال ابن بشر:

- هنا الجديد الطارف الطريف.. هاهاها... حين أدرك الرجل ما صار إليه، سقط ميتاً من الخوف قبل أن ينزل عليه السيف، فما رأيت الملك غاضباً مثل غضبه في تلك الساعة.

وانطلق في الضحك، وقال طرفة:

- غضب أن الرجل مات بغير السيف؟

- لا ريب، لا ريب. ألم يفوّت على الملك لذّته؟

- ولذته في سفك الدم!

ثم أردف ساخراً:

- بلى والله، كان ينبغي للرجل أن يرعى عهد الملك، فيؤخر موت الفجاءة إلى موت القتل. ما أقلّ ولاء الناس في هذا الزمان!

تنبه عبد عمرو إلى لهجة التهكم في كلام طرفة، فقال:

- تهزأ بالملك؟ وبي؟

التفت إليه طرفة، وفاجأه بالسؤال:

- كيف تستفتحون خطاب سيدكم؟

ظهر التعجب على وجه عبد عمر، ولكنه أجاب:

- أبيتَ اللعن. هكذا...

قاطعه طرفة بصوت هادر هذه المرة وقد انتفخت أوداجه من الغضب:

- بل عليه اللعنة، وعليك. تضحك وتتظرف في موت كهل مسكين عاجله الموت فسبق به سيف سيّدك؟! يا عبد!!

نطق كلمة «عبد» بأسلوب يؤكد معنى الصفة لا الاسم...

تجمّد وجه عبد عمرو من شدة الصدمة، وتلجلج لسانه الذي كان منطلقاً قبل قليل:

- تلعنني وتلعن الملك، وأنت في بيتي! ماذا لو تناهى ذلك إلى الملك، وعلم أني سكت عنه؛ لا يأخذك حتى يأخذني.

قال طرفة وقد نهض من جلسته:

- إن كان ثمن أخذه لك، أن أوخذ معك، فقد طاب الموت.

التفت عبد عمرو إلى الخرنق التي كانت تشيح بوجهها:

- هل سمعتِ هذا؟ ما قولك فيه؟

لم تجب. وعاد عبد عمرو ينفخ غضباً وضيقاً. واستأنف طرفة ليبلغ من نفس عبد عمرو ما ينفس به عن غضبه.

- لعلك تنظر في نفسك فتعجبك، ولِمَ لا؟ وأنت نديم الملك يهابك الناس لهيبته. ولكن اسمع هذا مني. ما مَثَلُك مع ابن هند إلّا كمثل ذبابة سكنت في لبدة الأسد أو ذيله، ثم تاهت على أخواتها قائلة: انظرن، هل يسع أحداً أن يذبّني؟

نهض عبد عمرو على ساقيه، والتفت من جديد إلى الخرنق وقال:

- ما الذي قلتِ له عني حتى تجرّأ عليّ وسبّني ذاك السباب. ولا أراك تذبين عن زوجك الذي أنزلك في هذا النعيم.

وأشار إلى المكان. وقال طرفة:

- بل رماها بك حظها التعس. ولو كنت في هَجَر حين خطبتها لرددتك ردّاً قبيحاً.

ردّ عبد عمرو متحدياً:

- ولكنك لم تكن. ولِمَ؟ لأن قومك عافوك ونبذوك، حتى تشرّدت في الصحراء مع الذئاب والضباع وأبناء آوى. ولعلها عافتك هي أيضاً فرجعتَ عنها إلى بلدنا هذا. فلما رأيتَ ما أصبتُ أنا من خير لم تصبه أنت، حسدتني وسلّطت عليّ لسانك. وهو كل ما عندك.

ركضت الخرنق خارجة إلى غرفة مجاورة إذ بلغت المشادة فوق ما تطيق. أما طرفة فقد فار الدم في عروقه إذ سمع كلام ابن بشر الأخير يعيّره، فهمّ به ولم يتوقف إلّا رعاية لأخته.

فزاد ابن بشر في لهجة التحدي:

- تريد أن تصرعني؟ هلمَّ فافعل! أم خفت الأسد الذي أسكن في لبده؟

مضى طرفة نحو الباب، وقبل أن يخرج التفت وقال متوعداً:

- سأضربك بسلاح دونه السيف... لساني الذي لا أملك غيره! فارتقب أيها الصفيق الذي قيل في أمثاله: أظلمُ من حيّة، وأخْدَعُ من ضبّ، وأكذب من الشيخ الغريب، وأخرق من حمامة، وأنَمّ من صبح، وأطيش من فراشة.

صفق الباب وراءه مخلّفاً عبد عمرو يرتجف كالمحموم، ويخور خوار البعير، لا يكاد يعي ما حوله.

* * *

برّ طرفة بوعيده. وسلق زوج أخته بهجاء مقذع سار بين الناس بسرعة النار في الهشيم، أعان على ذلك أن صاحب الهجاء شاعر كان قد طبّق الآفاق بشعره وأخباره، وأن المهجوّ نديم الملك وخادمه. ولم يشفع له بين الناس صلته بالملك أن يلمزوا به ويهمزوا ويفلتوا ضحكات مكتومة كلما مرّ بهم.

نعم، كان كما توعّد طرفة: سلاحاً أمضى من السيف. وما كان طرفة في ذلك الحين ليتصور أن سيف الهجاء الذي سلّه على عبد عمرو بن بشر سوف يرتدّ عليه في قابل الأيام أكثر مضاءً وقطعاً!!

أيــا عَجبــاً مــن عَبْــد عَمْــروٍ وبغيــه
لقــد رام ظلمــي عبــدُ عَمــروٍ فــأنْعَما

ولا خـــيرَ فيـــهِ غـــيرَ أنَّ لـــه غنـــىً

وأن لـــه كشـــحاً إذا قـــام أهضَـــما

يظـــلّ نســـاء الحـــيّ يعكفـــن حولـــه

يقلـــنَ: عســـيبٌ مـــن شرارةَ مَلْهَـــما

لـــه شَربتـــانِ بالنهـــار وأربـــعٌ

مـــن الليـــلِ حتـــى آضَ سُـــخداً مُوَرَّمـــا

ويشـــرب حتـــى يغمـــرَ المحـــضُ قلبـــه

وإنْ أُعْطَـــهُ أتْـــركْ لقلبـــيَ مَجْـــثما

كـــأنّ الســـلاحَ فـــوق شـــعبةِ بانـــةٍ

تـــرى نُفَخـــاً وردَ الأسِرّة أســـحما

* * *

أخذ عبد عمرو بن بشر يدور في مجلسه أمام المتلمس والخرنق، وهو يتنفخ غضباً ويقول:

- فضحني... فضحني وأذلني وأسقطني.. ماذا لو بَلَغَتْ أُذُن الملك؟

ثم التفت إلى الخرنق التي كانت تداري ابتسامة تشفٍّ به، وقال:

- أيسرّك هذا الآن؟ هل بلغتِ مرادك من أذاي؟

ولا خـــيرَ فيـــهِ غـــير أن لـــه غنـــىً

وأن لـــه كشـــحاً إذا قـــامَ أهضـــما

لم تجب. وتدخّل المتلمس وهو يكتم ضحكة تكاد أن تنفلت منه، وأحب أن يخفف من غضب ابن بشر، فقال:

- وما في هذا؟ إنه يصفك بالغنى وكثرة المال.

صاح ابن بشر:

- بعد أن عطّلني من كل مكرمة. ثم لم يكتفِ حتى وصفني بصفات النساء. أنا؟ أنا لي كشح ضامر غضّ كخصور النساء؟

أشار المتلمس إلى خصر ابن بشر المنتفخ باللحم وقال:

- ولكن خصرك ليس كما وصف. وقد يُمدَح الرجل بما ليس فيه!

ردّ ابن بشر:

- وذلك أبلغ في السخرية. وأنت... أنت تعرف هذا خيراً من غيرك وأنت الشاعر. فلماذا تداري عنه؟

قال المتلمس:

- ولكنه يقول أيضاً:

يظلّ نساء الحيّ يعكفن حوله يقلن عسيبٌ من سرارة مَلْهما

وهذا وصف لرجل له حظ مع النساء، فتراهن عاكفات حوله!

قال ابن بشر:

- لا والله ما هذا أراد. وأنت أعلم بذلك. فما زاد على أن جعلني قعيد النساء، لا أصلح لمشاهد الرجال، كأني إحداهن... يصفني وصف المرأة للمرأة: «عسيب من سرارة ملهما»... عود

طريّ من نخل مَلْهَم في اليمامة. هل تصف النساء رجلاً بهذه الصفة، إلّا يكون كإحداهن؟

قال المتلمس بلهجة يغالب فيها رغبته في التهكم:

- على كل حال. ليس لكل الناس علم بمرامي الشعر الدقيقة. وهذا مما يختلط معناه ويدق مرماه... فهوِّن على نفسك.

- لم يخف على رجل مثلي فكيف يخفى على غيري؟

قالها دون أن يتدبر معناها الذي يزري بعقله، فحاول أن يستدرك:

- أعني... أعني...

لم يسعفه لسانه، فتحوّل بالكلام إلى غيره:

- وإن خفي معنى ذاك كما تقول، فداهية الدواهي ما بعده: له شربتانِ بالنهار وأربعٌ...

تردد في إكمال البيت، فأكمل عنه المتلمس:

- حتى آضَ سُخْداً مُورّما

قال ابن بشر:

- ها أنت تحفظها... ولا أحسب إلّا أنك تتشفّى... فأنت ما زلتَ خدينه... أنا؟ أنا شره أكول، أشرب اللبن شرب البهائم وأعب منه ليلاً ونهاراً حتى أمتلئ به وينتفخ بطني فلا يبقى فيه مجال لنَفَسي، ويُغَمُّ على قلبي؟ ثم لم يجد ما يشبهني به إلّا ماء الرحم يخرج مع الولد؟ سُخدٌ مورّم؟ لا والله ما هجاني، بل سَلَح عليّ! يا للفضيحة! يا للفضيحة!

لم يعد بوسع المتلمس أن يموّه على ذلك الهجاء الشنيع. فقام ليخرج وقال:

- خفِّض عنك... ما يلبث أن ينساه الناس. وأنا أكلّمه.

قال ابن بشر:

- سبق السيف العذل.

قال المتلمس:

- لعلي أقنعه أن يعقب ذلك بمدح يمحو هجاءه!

قال ابن بشر مزدرياً:

- اصطده في حوانيت الخمارين... فتلك مثابته!

اهتزت الخرنق غيرةً على أخيها فقالت:

- ولرب سائل عنه التمسه في مشاهد العزيمة فلقيه فيها.

هز ابن بشر رأسه مستخفاً وقال:

- هه... هذا أو ذاك... قد خبرنا غايته.. أن يستهلك نفسه!

قالت بلهجة صارمة تعرّض به وتدفع عن أخيها:

- ولا يستهلك عرضه!

* * *

(2)

- يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنة

كذلك قال المتلمس بعد أن ملأ صدره بالنسيم العليل وهو يجلس إلى جانب طرفة على بسيط من العشب أمام جدول جارٍ بين بساتين الثمر المختلفة والزهور المتنوعة الألوان. ثم التفت إلى طرفة الذي كان يسرح ببصره في البعيد متأملاً صامتاً:

- هل وجدتها كما كانت توصف لك؟

تمهل في الجواب:

- أما الطبيعة والعمران فكما توصف.

تأمّله المتلمس، وقال:

- وأمّا الناس...؟

لم يعلّق طرفة، واكتفى بالإطراق.

زحف المتلمس ليواجهه:

- والناس في البوادي، هل وجدتهم خيراً من هؤلاء؟

لم يجب طرفة، وذهب في التفكير والشرود. بعد لحظة عاد المتلمس يتحدث:

- أما والله لم تجد في مفاوز العرب بغيتك، وعدت منها بأشد مما خرجت منه. أما آن للراكب المسافر أن يستريح؟ أطعني يا ابن أخت

مرّةً واحدة... عد إلى قومك في هجر، إلى أمك فقد تقرّح جفناها على فراقك.

نهض طرفة واقفاً ومشى بضع خطوات مستديراً عن خاله، وقال بصوت يرشح بخيبة الأمل:

- أعود شرّاً مما خرجت؛ فيشمت بي الأعداء؟

قال المتلمس وقد لحق به:

- ليس في قومك عدوّ لك...

ثم أطرق المتلمس يقلّب فكرة في رأسه، وقال بعد تردد:

- أعرض عليك أمراً آخر، لو أطعتني فيه لعدت إلى قومك غانماً كما ترجو.

التفت إليه طرفة مستطلعاً، فاستأنف:

- لقد سمع عمرو بن هند بطرف من أشعارك، وأحبّ أن يراك، وقد علم قرابتك مني.

هز طرفة رأسه بأسف وقال:

- هذا ما خشيت أن أسمعه، ألا تيأس يا خالي، فوالله لا آتيه ما أطّت الإبل وما حنّت النيب وما حملت عينك الماء!

آثر المتلمس ألا يقول أكثر مما قال، وقد علم عناد طرفة وترفعه، وما قال الذي قال وهو يرجو أن يطيعه على كل حال. ولكن لا أقل من المحاولة وأن يعذر لنفسه في ابن أخته، الذي رآه جل الوقت شارداً تائهاً في أفكاره ووجهته.

ولكن طرفة فاجأه بعد هنيهة بالقول:

- سمعت أن عمرو بن أمامة قد خرج يريد اليمن ومَلِكَها!

أوجس المتلمس في نفسه إذ سمع الكلام، فسأل:

- هذا أمر بينه وبين أخيه لأبيه عمرو بن هند. فما شأنك أنت حتى تقف عند خبره؟

تفحّص طرفة من جديد، ثم هتف مصدوماً:

- ثكلتك أمك، تريد أن تلحق بعمرو بن أمامة لتكون معه على أخيه؟ أشير عليك بالتوصل إلى صاحب الملك والبأس والسلطان، فتعرض عنه، ثم تعدل إلى السهم الخاسر؟ إلى ابن الضرة المضيّعة؟

أجاب طرفة:

- لعلي لهذا أحب أن ألحق به فأنصره، إنني في جانب المظلوم على الظالم. ألم يستأثر ابن هند بإرث أبيه، وقَسَمَ لإخوته الأشقاء وقَدّمهم وحرم ابن أمامة وأخّره؟

- لا والله ما هو كذلك، بل ترجو أن يدرك عمرو بن أمامة بغيته وأنت معه، فيحفظها لك ويصلك ويرفعك إذا حاز الملك من أخيه.

- لا بأس إذن... أريد هذا أيضاً.

- صوبني إن كنت مخطئاً. ما زلت تأخذ عليّ وعلى ابن بشر وقوفنا في باب الملك وتعرضنا لصلته، فما الفرق بين هذا وبين أن تكون خِدْن أخيه إذا صار ملكاً؟ ولا أحسبه يصير.

- الفرق أن هذا رجل مظلوم، إن نصرته فإني أنصر حقاً قبل أن يكون له سلطان... وتلك من المروءة. فإن بلغ مراده، ثم قسم لي منه، كان ذلك حقاً لي اكتسبته بيدي، لا بالهبة ولا العطية ولا المنّة. بل أكون أنا السابق فيها.

- عمرو بن أمامة! ليس إلا رجلاً من آل المنذر، ولولا أن غلبه ابن هند على ميراث أبيهما، لكان على طريقة أبيه ثم أخيه... لا فرق. وقد كنت تؤلّب الناس على حكم بني المنذر جملةً، فما الفرق في أن ينطاعوا لهذا أو لذاك؟

أفحمته حجة خاله، فلم يجد الآن ما يرد به. فآثر الصمت. واستأنف المتلمس:

- وقومك؟ أي جناية تجنيها عليهم إن مضيت مع ابن أمامة، وعلم أخوه بذلك؟ كأن نقمتك عليهم قد بلغت بك أن تضربهم بعمرو بن هند. وماذا عني أنا، خالك، نديم الملك؟

- سأكتم خبري، فاكتمه أنت. وما الحياة إلا مخاطرة، ومخاطرة الكريم على قدر كرمه.

- على أن المخاطرة تحتمل الربح والخسارة. وهذه لعَمْر الله خسارة محققة. لماذا في ظنك أن ابن هند ترك أخاه لأبيه يخرج إلى اليمن يستنصِر ملكها؟ أنا أدرى منك بخبث عمرو بن هند ودهائه. فمن عادته أنه إذا تورّع عن قتل رجل بيده، لسبب يراه، جعل قتله بيد غيره. وأنا أقول لك: عمرو بن أمامة هذا لن يرجع من اليمن بخير... فارتقب قولي، وراجع رأيك نشدتك الله والرّحم!

* * *

(3)

أدركه وقد أوغل في الطريق من الحيرة إلى اليمن، وأمن ملاحقة أخيه. وكان بطيئاً بالحمل الثقيل من الهدايا لملك اليمن، وما يصطحب معه إلا نفراً قليلاً.

ولما استأذن طرفة في الدخول عليه في القبة المضروبة له حيث أناخ، وأخبره طرفة برغبته في نصرته وأسبابه، أخذ عمرو بن أمامة يتفحّصه قبل أن يسأل:

- رجل واحد. ما غَناؤُه لي؟

أجاب طرفة بثقة:

- إني شاعر معروف. والشعر كتيبة. وقد عَلِمتَ قومي بكراً وهم أشد الناس نقمة على أخيك، ولكنهم ما زالوا يحجمون بعد أن خبروا الحرب وأهوالها، وقد حاولوا أن يجمعوا معهم قبائل هجر الأخرى، فخذلوهم ووشوا بهم. فإذا رأوا جند اليمن معك، فلربما أسقطوا الحذر ومالوا معكم.

هز ابن أمامة رأسه مفكراً. وبعد لحظة قصيرة تابع طرفة:

- ولي فيها مأرب آخر!

رفع ابن أمامة رأسه مستطلعاً، فأردف طرفة:

- إني رجل بعيد المطامح، وأرجو أن أصيب معك شيئاً لنفسي!

هنا أطلق ابن أمامة ضحكة قوية، وقال:

- الآن أستطيع أن أثق بك وأعوّل عليك، فقد علمتني السنون أن أصدق من ينصرك هو الذي تلتقي غايته مع غايتك! فهو ينصر نفسه إذ ينصرك.

قال طرفة:

- وملك اليمن؟ ما غايته من غايتك إذ ترجو نصرته؟

أجاب ابن أمامة:

- إنك لتعلم ما يكون بين الملوك من المنافسة. وما زال ملوك اليمن يحسدون ملوك الحيرة على ما بلغوا من السلطان، يؤازرهم فيه كسرى، فلا يقدر عليهم أحد. فإن أعانني على بلوغ مرادي، رجا أن أقسم له من خيرات بلدي.

- وتفعل؟

- ولِمَ لا أفعل؟ هل ظننت أن ينصرني حباً وكرامة؟ فإن تعهدت له بذلك لم أنقض عهدي أبداً.

* * *

في الطريق إلى اليمن، توثقت الصحبة بينهما، وأحب كل منهما الآخر حباً صادقاً. وكانا متقاربين في السنّ. وجمع بينهما الشعور بالمظلمة. فأسقط عمرو بن أمامة الكُلفة مع طرفة، وكان لا يجلس للطعام إلا بحضوره. فإذا فرغا جلسا يتسامران في خلوة، ويتبادلان الأخبار فيما وقع لكل منهما في حياته وما سمعا أو شاهدا من النوادر والطرائف، فيضحكان حتى يستلقي أحدهما على ظهره.

هذا رجل من بني المنذر الذين قهروا الناس وساقوهم بالعصا. وها هو وقد تجرّد من أي سلطان لا يبدو مختلفاً عن غيره. يتقلب بين الحزن والضحك، ويحب من الشعر الغزل والتشبيب والنسيب، لا المدح والفخر. وسوى أحلامه في خلع أخيه لِما أوقعه به من ظلم، فإنه يطلب من الحياة الذي يطلبه كل من كان في سنه: امرأة جميلة عاقلة محبة، وضجعة هانئة لا يتقلّب معها تقلب الخائف أو المقهور. ولو أن أخاه لأبيه عمرو بن هند لم يحرمه من إرث أبيهما، لما بدا له أن ينازعه الملك، ولما احتاج إلى أن يقطع البوادي والمفاوز إلى ملك اليمن يطلب نصرته. ولا يكون الطلب إلا مع شيء من التذلل. وقد أورثه ذلك كله أسئلة وتأملات في الحياة، كالتي عند طرفة. عمرو وعمرو: عمرو بن هند وعمرو بن أمامة. وما نسب الناس كلاً منهما لأمه دون أبيه إلا ليفرقوا بينهما إذ كلاهما عمرو. فما أقرب ما بينهما وما أبعده! هل هو اختلاف في الطبائع بين الأخوين المتفارقين أم هو السلطان صنع ابن هند على شاكلته دون أخيه؟ إذن فالسلطان لا يقهر العامة حتى يفسد السلطان نفسه. فإن كان هذا، فهل يتغير ابن أمامة إذا مَلَك، فيغلبه شيطان المُلك ويخرجه من طبيعته التي وُلِد بها إلى طبيعة السلطان التي تتلبّسه؟

حين عرض هذا الخاطر لطرفة، طرده بسرعة، ومالَ إلى الرجاء ألا يقع هذا يوماً لصاحبه الجديد الذي أحبّه حب الصديق للصديق. ولئن خرج معه لأغراض في نفسه عامةً وخاصة، فقد انضاف إليها الآن سبب المودة والأخوّة.

أخيراً، ها هو اليمن السعيد.

السعيد؟ أهو كذلك حقاً؟ لقد لحقه الوصف من تلك العصور الغابرة، عصور الوفرة والماء والثمر والجنان العظيمة، قبل انهيار سد مأرب وسيل العرم الذي شرّد قبائل اليمن في الأصقاع. ذهب ذلك كله وبقي الوصف، ومعه صلابة الرجال والجبال الصخرية التي يتسلقها أحدهم كأنه يمشي على بسيط ممرع، وقد جعل ذراعيه وراء ظهره!

أصرّ عمرو بن أمامة أن يصحب معه طرفة إلى مجلس الملك. وكان صيته في الشعر قد بلغ تلك الديار. وأحسن الملك استقبالهما. وكان قد سبق إليه الخبر عن خلاف ابن أمامة مع أخيه، وعلم غايته من القدوم عليه. ولم يكن في حاجة إلى التدبر الطويل في الأمر قبل أن يَعِد بنصرته. ولكنه اشترط قطيعة كبيرة من المال في كل عام، ولم يكن عمرو بن أمامة في حال يستطيع معه السَّوْم. فوافق من فوره. عندئذٍ سأله الملك:

- ومن أين تأتي بذلك المال، وعليك أن تقسم مثله أو أكثر منه لكسرى. وقد يقتضيك أكثر مما يقتضي من أخيك كي يقرّك على الملك ويرضى بك بدلاً من أخيك؟

تريّث ابن أمامة لحظات قبل أن يجيب:

- لن أعدم الوسيلة. فالحيرة وما والاها أرض عظيمة الخيرات كما يعلم الملك.

قال الملك:

- لا أرى لك وسيلة إلا أن تزيد في المكوس والخراج على من كان في طاعتك!

غاص قلب طرفة في صدره حين سمع هذا. فذلك بعض ما كره من عمرو بن هند. ونظر في وجه ابن أمامة يستطلع حاله في ذلك الأمر. ولكن ابن أمامة حافظ على سكون ملامحه كيلا تنبئ عما في نفسه أمام طرفة. فقد نطق الملك حقاً عما كان يضمره، فليس ثمة من طريق آخر.

واكتفى بالقول مخاطباً الملك:

- كما قلت يا سيدي، لن أعدم الوسيلة. وإني إذا عاهدت وفيت، ولك على ذلك عهدي وذمتي وذمة آبائي ملوك بني المنذر.

آثر طرفة أن يطرد مخاوفه، وأن يعتقد أن صاحبه لن يمضي في الناس بسيرة أبيه وأخيه، بعد الذي صار بينهما من الود، وما لمسه فيه من الطيبة والتبسّط والتواضع وحُسْن المعشر وكراهة الظلم الذي نزل فيه، فمن شأن المظلوم ألا يَظلِم! أو هكذا أقنع نفسه.

وعلى ذلك تعاهد ملك اليمن وابن أمامة. وقرر الملك أن ينتدب معه قبيلة مراد، وهي من أشد الناس بأساً، ومن أكثرهم عدداً.

وحين خرج ابن أمامة وطرفة من ذلك اللقاء، واختلى أحدهما بالآخر تخلّى طرفة عن وقاره وهتف بصيحة الفرح، وأقبل على ابن أمامة يحتضنه بحرارة، حتى قال ابن أمامة ضاحكاً:

- هَوْناً، هَوْناً. إنك تهز الآن ملكاً!

قال طرفة:

- ومن أحقّ من خِدْن الملك وصاحبه بهزّه. إنها قبيلة مراد، أصبر الناس على القتال.

مرّت هنيهة صمت، قبل أن ينظر طرفة في وجه ابن أمامة متأملاً، ليقول بصوت هادئ عميق:

- ستحكم الناس بالعدل يا ابن أمامة... بل يا سيدي الملك... أبَيْت اللعن! أليس كذلك؟ لن ترهقهم بالمكوس والمغارم والأعشار! ولن تسوس الناس على طريقة آبائك وأجدادك.

لكأنه أراد بذلك الكلام أن يدفع ذلك العارض الذي ألمّ بنفسه من كلام ملك اليمن عن زيادة المكوس ونحوها. أما عمرو بن أمامة فاجتهد من جديد ألّا تفصح ملامحه عما في نفسه بذلك الشأن، إلّا أنه لم يستطع أن يغالب ضيقه وانقباضه لذكر طرفة لآبائه وأجداده في معرض التهمة. فهو لم يتجرد من حميّة العصبة والإرث التليد. أليس من بني المنذر الذين سادوا الدنيا وانطاعت لهم الرقاب؟ فقال بلهجة اجتهد أن تكون متلطفة:

- ليتك اكتفيت بذكر أخي عمرو بن هند، دون آبائي. على كل حال، أولئك قوم غبروا، ولنا من أمرنا ما نستقبل.

ثم نفض رأسه وتحوّل إلى أمر آخر متعجلاً كي يقطع على طرفة المضي في حديث آبائه وما عُرِف عنهم جميعاً من البطش والجبروت، فهي سنّة فيهم، وقال بنبرة مختلفة:

- وعلى كلٍّ، لم أتوصل إلى المُلْك بعد.

قال طرفة بحماس:

- ستفعل... إنها قبيلة مراد، يجمعها العَصَب، أما جيش أخيك فقِطَع من قبائل شتّى يَنْفُسُ بعضهم بعضاً، ولا يجمعهم على أخيك

إلا الخوف منه، وخوف بعضهم من بعض أن يتقدم هؤلاء على أولئك. وأنا أعلم بما في نفوسهم. فجلّهم يبغض أخاك وإن نافقه، ويرجو زوال ملكه، فإذا رأوا ميل الدهر عليه، تفرّقوا عنه، ولم يُهدفوا أنفسهم للهلاك من أجله. بل ربما اهتبلوا الفرصة ومالوا عليه، وقشروا له العصا!

هز ابن أمامة رأسه متفكراً:

- أرجو أن تكون مصيباً.

* * *

ولكن ظنّ الرجلين، لا سيما طرفة، بقبيلة مراد، كان على غير ظنّ مراد نفسها بنفسها وبكل موضوع النزاع بين الأخوين وما يلابسه، بل بملك اليمن نفسه!

فحين بلغ القوم وادي قضيب من أرض تهامة في الطريق إلى الحيرة، وأناخوا هناك لليلتهم، ورقد ابن أمامة وطرفة، كان رؤساء مراد مجتمعين في قبة متنحية، يراجعون أنفسهم في أمر هذا الرجل الذي انتدبهم ملك اليمن ليقاتلوا عنه. فقام فيهم سيّد منهم وقال:

- تركتم أموالكم وديياركم وأهلكم، وتبعتم هذا الرجل الأنكد، في أمر ليس لكم فيه ناقة ولا جمل. وما أرى ملك اليمن قد انتدبنا لهذا إلّا ليضربنا بعمرو بن هند، ومن ورائه كسرى، ليأمن كثرتنا وبأسنا على ملكه. وقد رأيتم أنا زجرنا الطير قبل خروجنا فمرّت من شمالنا، وكفى بذلك شؤماً. ثم مضينا معه خشية أن نُتَّهم بالجبن. فلا والله لا يأتيكم معه إلا النحس ومقاتل الرجال.

قال آخر:

- فبِمَ تشير؟ وقد بلغنا معه هذا القدر من الطريق؟

لم يتردد الأول في الجواب:

- نقتله. ثم نوفد أحدنا إلى عمرو بن هند يبشِّره بمقتل عدوّه.

هتف أحدكم مستنكراً:

- نغدر به؟

أجاب الأول:

- نثور به كما دبّر لأخيه. أما الغدر، فذلك ما أراده بنا ملك اليمن حين أخرجنا معه. هذا أو هلاككم. فقد علم ابن هند أنّا خرجنا معه، ولن يقبل منا عذراً إلا برأس أخيه. وإن قيل: نعتصم في بلادنا منه فلا يصل إلينا، فاذكروا أن بعض أحياء مراد قد ارتحلوا منذ زمن وأقاموا في جوار الحيرة. وفوق ذلك فإنّ لنا تجارة مع الحيرة، فكيف بكم إذا مُنِعتموها غداً أو ذهبتم بها فظفر بكم عمرو ابن هند هناك؟ وما لنا نحن بما نجم من الشر بين الأخوين؟ لماذا ننحاز للضعيف المشؤوم على القويّ ذي الحظ العظيم، وكلاهما من بني المنذر. والأرجح عندي أن كسرى سينصر ابن هند على أخيه. بل ذلك هو المُحَقَّق... لماذا يتحول عن الملك القائم الذي لم يتغير عليه، إلى أخيه هذا؟ ولِمَ لم يذهب عمرو بن أمامة إلى كسرى فأغراه بخلع أخيه، وقطع له فوق ما يقطع عمرو بن هند لكسرى؟

سكت القوم أمام تلك الحجج القاهرة، ثم سأل أحدهم:

- وصاحبه البكري؟

أجاب خطيب القوم:

ـ لا شأن لنا به، ولا بخصومة قومه، وهم من جماجم العرب كما تعلمون.

كان ضوء الفجر الأول يتسلل إلى خيمة طرفة، حين فزّ من فراشه على جلبة قريبة، واعتدل جالساً يصيخ السمع وفي عينيه آثار النوم، حتى سمع صرخة منكرة من جهة القبة التي ينزل فيها عمرو ابن أمامة. فقفز من مكانه، وهرول إلى الخارج ينظر ويستطلع. فرأى ما لم يخطر له بحسبان أبداً وجعله يتجمد في مكانه مصدوماً: نفر من مراد يخرجون من قبة ابن أمامة تقطر سيوفهم دماً!

* * *

(4)

تُعْساً لمراد... تعساً لمراد..

ظل يردد في نفسه وهو يخب براحلته وحيداً في المفازة الغادرة المفتوحة على الشقاء والتيه وخيبات الأمل. وامتزج في نفسه الغضب والأسى، كما اختلطت أسبابهما. فهو في أسى مرّ على صاحبه وعلى نفسه. ثم لم يجد ما يواسي به نفسه غير بيت من شعر امرئ القيس:

فقلـــت لـــه لا تَبْـــكِ عينُـــك إنّـــما

نحـــاول مُلْكـــاً أو نمـــوتَ فنُعْـــذرا

ولكن صاحبه مات وحده ولم يمت هو معه، فمن يُعْذِره؟ ثم طفق يتساءل: هل كان هلاكه شرّاً يبطن خيراً؟ ماذا لو حاز الملك ثم أغواه السلطان فمضى على سيرة أخيه وآبائه؟ وهل حقاً كان بوسعه أن يقسم تلك القطيعة العظيمة التي اشترطها عليه ملك اليمن إلى جانب القطائع التي تذهب لكسرى، دون أن يستوفيها من خزائن الناس وأموالهم؟ وإنه تجنب أن يفصح بكلام واضح قاطع في هذا الشأن. ولو أنه بلغ غايته ثم فعل ذاك لكانت فجيعة طرفة فيه أشد من فجيعته الآن في موته، ولانقلب عدواً صريح العداوة. أما الآن فقد مات حميداً لم يتلوّث بقَذَر السلطان. وأن يموت المرءُ مظلوماً وهو يدفع عن حقه، خير من أن يهلك ظالماً مذموماً.

وجد بعض السلوى في هذه الخواطر التي انثالت عليه، ولكنّ ذلك لم يخفف من غضبه ونقمته. ألا تعساً لعمرو بن هند! ألا تعساً لكسرى! ألا تعساً لملك اليمن! ألا تعساً لمراد! ألا تعساً للمظلومين الذين لا يخرجون بسيوفهم!

إن لم يُعْذِره الموت مع صاحبه، فسيعذر نفسه بعمل لا يفعله إلا مجنون، أو رجل يطلب الموت الذي راغ عنه!

* * *

- طرفة بن العبد البكري الشاعر، يستأذن في الدخول عليك يا سيدي، ويلحّ في الطلب... يقول: عنده خبر عن أخيك عمرو بن أمامة!

لم يصدِّق عمرو بن هند سمعه، وتبادل مع شقيقه قابوس نظرة حائرة. حين دخل عليه طرفة ابتدره ابن هند بالقول:

- إذن أنت الشاعر الذي طبّق ذكره الآفاق، حتى أحببنا أن يأتينا. وها أنت هنا... فما خبرٌ جئتَني به عن ذلك الشقيّ؟

هتف طرفة:

- الثأرَ الثأرَ أبيتَ اللعن.

سأل ابن هند وقد زادت حيرته ودهشته:

- ممّن، لا أمّ لك.

- من مراد.

- وما فعلت مراد؟

أجاب طرفة متدفقاً كالسيل:

- غَدَرت بأخيك، ابن أبيك وإن كان مخالفاً لك. فدمه في وادي قضيب بتهامة، وثأره عندك. إن لم يكن له فلِدَم آبائك وأجدادك الذي كان يسري فيه كما يسري فيك... لحرمة دم بني المنذر! فما كان لأحد أن يصيبه إلّا من كان كفاءه نسباً، وذلك أنت، أو تعفو عنه إذا شئت. وكان في وسع مراد أن ترجع عنه وتخلّي بينك وبينه، ولكنها اختارت الغدر. والغدر شيمة عامة في أهل الغدر، اليومَ على خصمك، وغداً عليك!

تمهّل عمرو بن هند ليستوعب الموقف الغريب المحيّر. ثم قال:

- قد بلّغت ووفيت الذمّة. فانطلق راشداً، ودعني أتدبر في الأمر.

حين خرج طرفة، هبّ قابوس نحو أخيه منفعلاً:

- لقد علمت الآن أنه كان معه؟ ثم يأتيك يحرّض على الثأر لعدوّك من مراد التي كفتك إياه، فحقها الجائزة لا الثأر. ما هذا؟ أمجنون هو حتى يرمي بنفسه في مهلكتك، والأعجب منه أن تتركه يخرج آمناً.

هز ابن هند رأسه وقد ذهب في التفكير، ثم التفت إلى أخيه وقال:

- أعجبني وفاؤه على كل حال. وقد صدق: الغدر شيمة عامة في أهل الغدر، وكذلك الوفاء والتذمّم والمروءة. وسوى وفائه أعجبتني شجاعته. فليت عندي مائة مثله.

هَمَّ قابوس أن يعترض، فقاطعه شقيقه الملك:

- لا، لن أغفرها له مع ذلك. ولكن لكل شيء موعد وميقات. وليس هذا هو الوقت لإغضاب بكر، حين بدأت تغلب تتغير علينا وتطوي النفوس على دَخَن، منذ ظهر فيهم ذلك الشاعر المعجب بنفسه: عمرو بن كلثوم، يزعم أنه وقومه أعزّ الناس، وأنه يأنف أن ينطاع لي بنفسه، واجتمعت حوله تغلب يفاخر بها وتفاخر به. فلو أني قتلت ذاك الغلام البكري لحَمِيَتْ له أنوف بكر، ووافق ذلك أغراض تغلب، فاجتمع الحيّان على نقض الطاعة...

ثم التفت إلى شقيقه:

- هل وعيت قولي؟

هز قابوس رأسه متفهّماً، وتابع ابن هند:

- واذكُر هذا... لم تُعطِنا تلك القبائل حبّاً وكرامة، ولا نحن تألفناها بالودّ والملاينة. ولكننا قهرناها على ذلك قهراً، واستعنا عليهم بهم وبما بينهم من تنازع وتنافس. فلا يَغُرنّك ما نحن فيه من قوة فتنصرف عن تدبّر أسبابها! فليس بين الذروة والقاع إلّا أن يعثر الرجل... ربما بحصاة فقط، فلا يقوم بعدها أبداً! أسباب قوتنا هي أسباب ضعفنا إذا لم نحسن التدبير، تدبّر هذا!

ثم أرسل نظرة غائمة في فراغ المكان واكتسى وجهه بملامح التأمّل ولاحَ عل وجهه طيف ابتسامة باهتة، وقال كم يحدِّث نفسه:

- أيّ مفارقة! أليس من العجيب أن يتأرجح الميزان بين شاعرين، هذا لبكر، وهذا لتغلب! طرفة بن العبد البكري، وعمرو ابن كلثوم التغلبيّ. كلاهما عدو لنا، عدوٌّ لقوم الآخر. فلا ندري أيهما نصيب أولاً، قبل أن يصيبانا معاً!

حين خرج طرفة من عند عمرو بن هند، ثم ركب راحلته وأخذ يقطع القفار، لم يكن أقلّ تعجباً من ابن هند في حاله. حين دخل عليه بذلك الكلام كان الغضب والأسى قد أذهلاه عن نفسه حتى نكّب جانباً عن ذكر العواقب. وما كان الموت المحتمل ليخيفه على كل حال. فهو يستتر في كل مكان، ولا تتباين احتمالاته بين موقف وآخر كما يرى. بل ربما كان في أقصى مكان من ضميره يرغب فيه. يُعْذِر به لنفسه كما أعذرها عمرو بن أمامة وهو يطلب المُلك، ويتحرّر من متاهات حياته بين نفسه المتوحّدة وبين جماعته التي تحضر في غيابها أكثر من حضورها أمام عينيه... بين مضارب البدو ومنازل الحضر... بين ظلم القريب وعداوة البعيد... بل بين ظلم المظلوم وظلم المتغلّب!! وتَقَلَّبَ بين صحبة الفقراء وصحبة أمير من بني المنذر... وكلا الطرفين كان يشكو من الظلم... ولكن الأول طلب القليل ولم يجده، والثاني طلب العظيم ولم يصبه... وكلاهما لقي حتفه أمام عينيه دون غايته... عامر وسعد في جانب الفقراء، وعمرو بن أمامة في جانب الأمراء. وفي كل الأحوال نجا هو دون غيره، حتى مع تقحّمه مهلكة عمرو بن هند! لكأن الموت الذي لا يخشاه يفرّ منه، أو يراوغه ليأخذه على غير إرادته، وبذلك فقط يقهره!

وهل كان عمرو بن هند ليتركه يخرج آمناً لولا أنه لم يرَه مفرداً حتى رأى قومه معه؟ فإن كان لا ملجأ له من قومه إلا بهم، ولا مفرّ منهم إلا إليهم، وهم معه غاب عنهم أم حضر، فالأوْلى أن يعود إليهم بعد طول السفر والتجوال. وها هو نخيل هَجَر يتسامى له من بعيد عند خط الأفق! ولأول مرّة لا ينكر على نفسه شوقه لبلده ومنازل قومه وأهله!

عودة التائه إلى دياره

(1)

كان آخر ما توقعه معبد أن يكون الطارق أخاه التائه منذ سنين. فاحتضنه بحرارة غامرة، وكان قد تزوج امرأة اسمها هند في غيبته، فشاركت زوجها فرحه بلقاء أخيه. وقبل أن يجلس طرفة تلفت في المكان، ثم نظر في أخيه مستطلعاً:

- وأمي؟

نكس معبد رأسه كسيفاً حزيناً، وأدرك طرفة المعنى، فهبط إلى الحشيّة مطرقاً وقد وضع رأسه بين كفيه. ربّت معبد على كتفه مواسياً، وبعد هنيهة سأل طرفة بصوت ضعيف مرتجف كأنه يأتي من جب عميق:

- متى؟

- منذ شهر.

لأول مرة في حياته يرى معبد أخاه يشهق بالبكاء. فجلس إلى جواره وأحاطه بذراعه:

- هوِّن عليك يا أخي...

مسح طرفة دموعه بطرف كمّه، وقال:

- أما الموت، فلا رادّ له. ولكني أبكي أني لم أدركها قبل الفوت، فتقرّ عينها بعودتي ولا تقضي بحسرتها. فلبئس ولد الحرّة أنا.

قال معبد:

- لا تشتد على نفسك يا أخي... قضاء مُحكَم...

هزّ طرفة رأسه يميناً وشمالاً وقال بلهجة حائرة:

- لا أدري... لا أدري... لم أعد أدري... أهو القضاء المُحَكَّم، أم حكم أنفسنا فينا.

لا، لم يعد طرفة بالقلب الذي خرج به. أو هكذا بدا لمن حوله. شيء ما قد انكسر فيه فغيّره. فهو الآن أقلّ اعتداداً بنفسه؛ ذلك الاعتداد الذي كان يشتبه بالكبر والغرور والتعالي على الجميع، وبالقدر نفسه صار أكثر قبولاً لقومه. فها هو يبدأ بزيارة أعمامه الذين ما لبث ينكرهم وينكر عليهم منذ نعومة أظفاره. وكان أبو الربيع قد قضى نحبه منذ حين وورثه ولده مالك الذي كان أشدّ لؤماً وبخلاً من أبيه. ومع ذلك لم يتردد طرفة في زيارته. ولكن مالكاً أبى إلّا أن يفسد مزاج ابن عمّه، فحين أدّى له طرفة واجب العزاء في أبيه، أحب طرفة أن يزيد فقال:

- وعزاؤك عزائي.

ألقى عليه مالك نظرة شك، وقال:

- حقّاً! ظننت أنك أبغض الناس له، وإن كان عمك!

قال طرفة مغالباً ضيقه:

- ذلك أمر قديم. وقد انقضى الآن.

ثم انخرط مالك في المباهاة بما خلفه له أبوه من المال والزرع والنخيل والإبل، يريد بذلك أن يغيظ طرفة الذي رجع من ترحاله صفر اليدين، لا أمامه ولا خلفه.

لم يتلبّث طرفة بعد ذلك طويلاً عنده كيلا يفسد عليه رغبته في الإقبال على أهله، ويردّه إلى ما كان فيه من النفور.

ثم فوجئ به سادة حيّه من بني قيس بن ثعلبة البكريين، داخلاً عليهم في ناديهم، فرحبوا به دون حماس كبير. فهو لم يكن يغشى ناديهم إلّا ليحرّض أو يُبَكِّت. وحين دعوه إلى الجلوس، دار في المكان ثم توقف في وسطه، وهنا كانت المفاجأة الكبرى، إذ أنشد قصيدة يفتخر بهم، كان منها:

وَلَقَـــد تَعلَـــمُ بَكـــرٌ أَنَّنـــا
آفَـــةُ الجُـــزرِ مَســـاميحٌ يُسُـــر

وَلَقَـــد تَعلَـــمُ بَكـــرٌ أَنَّنـــا
واضِـــحو الأَوجُـــهِ في الأَزمَـــةِ غُـــر

وَلَقَـــد تَعلَـــمُ بَكـــرٌ أَنَّنـــا
فاضِـــلو الـــرَأيِ وَفي الـــرَوع وُقُـــر

وَلَقَـــد تَعلَـــمُ بَكـــرٌ أَنَّنـــا
صـــادِقو البَـــأسِ وَفي المَحفِـــلِ غُـــر

يَكشِـــفونَ الضُـــرَّ عَـــن ذي ضُرِّهِـــم
وَيُـــبِرّونَ عَـــلى الآبي المُـــبِر

فُضُـــلٌ أَحلامُهُـــم عَـــن جـــارِهِم
رُحُـــبُ الأَذرُعِ بِـــالخَيرِ أُمُـــر

ذُلُـــقٌ في غـــارَةٍ مَســـفوحَةٍ
وَلَـــدى البَـــأسِ حُمـــاةٌ مـــا نَفِـــر

نُمسِــــكُ الخَيْـــلَ عَـــلى مَكروهِهــــا
حــــينَ لا يُمسِــــكُها إلّا الصُـــبُرْ
نَـــذَرُ الأَبطــــالَ صَرعــــى بَينَهـــا
مـــا يَنــي مِـــنهُم كَمِــيٌّ مُنعَفِـــر
فَفِـــداءٌ لِبَنـــي قَـــيسٍ عَـــلى
مـــا أَصـــابَ النـــاسَ مِـــن سُرٍّ وَضُر
كُنـــتُ فـــيكُم كَـــالمُغَطّي رَأسَـــهُ
فَـــانْجَلى اليَـــومَ قِنـــاعي وَخُمُــــر
وَلَقَـــد كُنـــتُ عَلَـــيكُم عاتِبـــاً
فَعَقَبـــتُم بِـــذَنوبِ غَـــيرِ مُـــرٍّ
ســـادِراً أَحسَـــبُ غَيِّـــي رَشَـــداً
فَتَناهَيـــتُ وَقَـــد صـــابَت بِقُـــرّ

ما إن فرغ حتى تهللت أسارير القوم وعلت أصواتهم بالثناء. أهذا طرفة الذي عرفوه من قبل ثائراً جموحاً معتزاً بنفسه، ناقماً على رهطه، يمدحهم الآن ويفخر بهم، ثم يعتذر لهم عن غيه القديم؟ صحت توبة الفتى إذن وثاب أخيراً إلى رشده!

وكان أسعدَ الناس بذلك أخوه معبد، وعمه المرقش الأصغر.

....

هذه مرابع الصبا الأول، لم يكن قد بلغ الخامسة والعشرين، ولكنه يشعر بأنه كبر أربعين سنة ويزيد، وأنه يلتفت الآن إلى ماض بعيد. فهنا كان يلعب مع صبيان حيه، حين كانت الحياة خالية

من المنغصات، ولا تحمل معها إلا وعود الخير والغيث والمجد والمواسم الطيبة.

وأخيراً وقف أمام نخلته المنفردة السامقة التي زرعها مع أبيه ونذر ثمرها للفقراء وعابري السبيل، لا يُمنع منها أحد. وأخذ يتأملها ويتحسس جذعها، حين سمع صوت أخيه معبد من ورائه:

قد تعهدتها عنك في غيابك، كما لا أتعهد نخلي، كأنها أنت أمامي!

التفت إليه طرفة مبتسماً وقال:

كفيت ووفيت يا أخي.

اقترب منه معبد، وقال:

- قد أحسنت حين أنشدت في حيّك ذلك الشعر! تركتُ القوم يلهجون بذكرك، يقولون: كسبنا شاعرنا الذي يفاخر بنا وينافح عنا، فلا تزيد علينا تغلب بعد بشاعرها وسيِّدها عمرو بن كلثوم.

ابتسم طرفة، وأرسل نظره في البعيد، وقال بنبرة التأمّل:

- إن المرء ليرى بعينه كل شيء، إلّا عينه نفسها، فلا يراها إلّا في عيون غيره. وكذلك قبيلته، لا يراها حقاً إلّا في مهابة الآخرين لها. مرّت هنيهة صمت، وبدا أن معبداً يراود نفسه على القول. ثم تغلب على تردده فقال:

- يا أخي... إنك اليوم بلا مال. فهل أقسم لك من مالي لتعتاش منه؟

نظر إليه طرفة بمحبة صادقة، ثم قال:

- لا آكل بعد إلّا من كسب يدي.

اهتزت ملامح معبد وقال مستنكراً:

- تعمل بيدك للناس؟ لا يكون هذا وأنا حيّ.

أجاب طرفة:

- بل أعمل لك، فلا يضرّني أن أعمل لأخي. ألحقني ببعض إبلك، أنهض بشأنها وآكل منها بحقها.

هَمَّ معبد أن يتكلم، فقاطعه طرفة بلهجة قاطعة:

- هذا أو لا شيء. ولا تجادلني فيه.

هزّ معبد رأسه موافقاً وقد علم إصراره.

* * *

(2)

لئن بدا أن طرفة قد تغيّر، وكان حقاً يرغب في ذلك، فإن من حوله لا يتغيّرون، فهم على طبائعهم وطرقهم التي درجوا عليها. وهل يسع المرء أن يتغير وحده؟ فها هو مالك ابن عمه لا يدع مناسبة إلّا لَمَزه واستفزّه، وقد طابت نفسه بأن يراه في إبل أخيه مع الرعاة. يوردها الماء ويصدرها ويلاحق ما يندّ منها عن القطيع، ويهنأ أجربها بالقار ويجمعها في مَنَاخها. وقد يسهر الليل عندها. وحين مرّ به يوماً وهو في الإبل أحبّ أن يغمز منه كعادته، فقال:

- يا ابن عمّ، قد ضلّ لي بعير، وأرسلت بعض رعاتنا في أثره، فإن رأيته في طوافك بإبل أخيك، فلا يفوتنّك أن تدركه وتعود به لي، فأشكرها لك. إنك لتعرف وسم إبلي، وهو فحل عزيز عليّ، فبه بلغت إبلنا ألفاً، ولذلك تراه مفقوء العين. وإني لأتفاءل به. ولك إن وجدته عشرة من الإبل، فإن شئت أن أزيد زدت.

لم يقل طرفة شيئاً، وتشاغل عنه بعمله، وعاد مالك يخاطبه:

- إن معبداً لذو حظ، إذ وجد أخاه يرعى له إبله. فهؤلاء الرعاة لا يبذلون وسعهم إلّا إذا قمت على رؤوسهم. وما الذي يهمهم من أمرها إذ هي ليست إبلهم ولا إبل أخ لهم؟

ثم انطلق مبتعداً بجواده. ولو تأخر قليلاً وزاد في كلامه لما وسع طرفة أن يستمر فيكظم غيظه، وقد كان على وشك أن يطلق فيه لسانه.

المال والشعر!

المال الذي يكاد أن يتغلّب على منزلة النسب، فإذا اجتمعا صار الرجل في أعلى المراتب بين الناس. ومالك يملك الاثنين.

ولكن يبقى الشعر وسحر البيان في مرتبة عليا بين العرب، فيفاخر بهم شاعرهم ويفاخرون به ويحتفلون بنبوغه. الشعر زاد المرء في أشواقه وأحلامه، وسلواه في خيباته وانكساراته، ورفيقه في أسفاره، وسجل أمجاده وأمجاد قومه وآبائه حين تنقضي الأيام وتنصرم السنون ويغيب الشهود. والشعر سبيل العشاق إلى معشوقاتهم وعزاؤهم عن فقدانهن. والشعر يشعل الحروب ويطفئها. وكم قتل سحر البيان ناساً وأحيا ناساً كانوا على وشك الهلاك. وكم رفع وخفض، وجمع وفرّق. وذلك طرفة وإن قلّ ماله.

وإن كان أصحاب المال كثيرين في المنازل والديار والقبائل، فالشعراء أقلّ منهم، لا سيما النوابغ المبرّزون. وقلّة الجوهر تغليه. وإذا كان جمع المال يأتي بميراث أو بكسب، فإن موهبة الشاعر هبة من قدر مجهول، يولد بها الشاعر ولا يستطيع أحد أن يكتسبها بجهد مهما يحاول.

لا، لم تكن استفزازات مالك المتعمّدة فقط لِضغينةٍ قديمة كانت بين طرفة وأبيه، ولكنها كانت أيضاً من قبيل الحسد والتنازع بين قوة المال وقوة الشعر واللسان!

فإن لم يكفِ طرفة ما يلقى من ابن عمه مالك من الأذى والتعريض، فهناك ابن عمه الآخر وزوج أخته: عبد عمرو بن بشر الذي أقذع طرفة في هجائه حتى سار ذلك الهجاء بين الناس،

وصحب ابن بشر في حلّه وترحاله. فقد ينسى الناس حوادث الأيام مع تطاول الأيام، ولكنهم لا ينسون سِجّلها في الشعر. وها هو ابن بشر يعود بالخرنق إلى هجر في بعض زياراته إذ يتردد بين الحيرة وهجر من حين إلى حين. ولا يملك طرفة إلا أن يزور أخته الحبيبة، على ثِقَل زوجها وغثاثته. ولم يسرّ ابن بشر شيء أكثر مما سرّه أن يرى طرفة متطامناً يرعى إبل أخيه. وما كان ليترك الفرصة ليزري به كفاء ما أزرى به طرفة في ذلك الهجاء. فإذ قام مُنهِياً زيارته لأخته، رجته أن يمكث قليلاً، ولكنه اعتذر بمشغلته. فقال ابن بشر معلِّقاً:

- هاه! إبل معبد! أهو موعد ورودها الماء؟ كيف وجدت رعي الإبل يا طرفة؟

أجاب طرفة من فوره:

- خير من مجالس بعض الناس. إنها على الأقل عجماء لا تقول خيراً ولا شراً. وبعض الصمت خير من الكلام الغث.

وما إن خرج، حتى التفتت الخرنق إلى زوجها وقالت مؤنبة:

- أنت ولسانك، قبّحك الله.

تصنّع ابن بشر البراءة فسأل:

- وماذا قلت؟ أليس يرعى إبل أخيه حقاً؟ فإن كان رعي الإبل مما يعيبه، فلِمَ يفعله؟ وإن وجدتِ في قولي ما يغمز فيه، فأين هو من ذلك الهجاء الذي هجاني به، ولم أركِ يومئذ تغضبين لي غضبك الآن له، ولا حتى أقلّ منه!

آثرت ألا تطيل جداله، وانصرفت عنه إلى غرفة أخرى.

أما طرفة فعاد إلى الإبل، وكان صدره يعتمل بالغضب والضيق. فلم يرَ فيها الجَمال الذي كان يراه فيها، فضاق بها إذ ضاق بنفسه.

ثم خاطبها:

- حق لك أن تفخري على إبل الناس، أن راعيك طرفة بن العبد نفسه.

ثم أطرق ساهماً وأردف كمن يحدث نفسه:

- ولكن، هل يفخر ابن العبد أنه راعيك!

توهم أنها تلتفت إليه متفحصة متهكمة، فصاح فيها:

- ما بالك تنظرين إليّ هكذا؟ ألم يعجبك قولي أيتها العجماء الحمقاء! أما علمت أني أستطيع أن أنحرك إذا شئت، وأطعم لحمك لنساء الحيّ؟ لطالما فعلت ذلك، أو أمتطيك تحتي وأجوز بك المفاوز والشِّعاب على هواي لا هواكِ... لطالما فعلت ذلك أيضاً!

ثم اقترب منها وأخذ يمسح على إحداها وقد رقّت لهجته:

- أتحبين سماع الشعر؟ نعم، لا بد. ألستِ تنشطين للحداء إذا مللتِ المسير؟ إذن فأنصتي:

أصحوتَ اليومَ أم شاقَتْكَ هِرّ
ومن الحبّ جنونٌ مستعِرّ
لا يكن حبُّكِ داءً قاتلاً
ليس هذا منكِ مَاويَّ بِحُرّ

كيـف أرجـو حبَّهـا مـن بعـد مـا
عَلِـقَ القلـبُ بنُصْـبٍ مسـتَمِرّ

ثم عاد يمسح عليها وقال:

- لا عليك. لئن كان البشر ينحرون منك، فكم نُحِروا فيك وفي طلبك؟ من أجلك يغزون، فيَقتلون ويُقتلون. وبك يعلو غنيهم، وبدونك يتسفّل فقيرهم. أنت نعيمهم إذا كثرت عندهم، وبؤسُهم إذا خلوا منك... فمن يتعالى عليك بعد!

نظر إليها من جديد متأمّلاً، ثم قال:

- أعلمك الشعر، فعلّميني الصبر!

* * *

أعجزها تعّلم الشعر، وأعجزه تعلّم الصبر! فحَالَ إلى ما كان يعينه على النسيان في زمانه القديم!

حين رآه صاحب الحان يدخل المكان، تمعّر وجهه وقد ذكر ما وقع بينهما حين ذهب ماله وعجز عن السداد. فتعمّد طرفة أن يضرب على مخلاته ليسمعه رنين الدراهم، ففُرّج عنه، وأقبلت القينة مرحبةً مبتهجة بقدومه. وكانت تُكِنّ له حباً مكتوماً، وهتفت:

- إنك والله لطرفة.

قال بأسلوب مرح:

- بلحمه وشحمه.

قالت:

- لا أرى عليك شحماً. أنت كما كنت دائماً.

قال:

- لا يبقى أحد على حاله. ولكن... أنت... أما زلت تحسنين العزف والغناء؟

- هل تراني قد كبرت؟

جلس ودعا بالشراب. وبعد أن احتسى بضع كؤوس ، هتف بها صاحب الحان:

- ماذا تنتظرين؟ أسمعي الفتى الكريم ومتّعيه بنهار غاب حُسّاده.

بعد أن دارت في رأسه نشوة الخمر، أخذ يدور في المكان وبيده الكأس، وينشد من شعره وهو يشير إلى القينة متغزلاً دون رادع، وبدأ بخصرها:

ولهـــا كشـــحا مهـــاةٍ مُطْفِـــلِ

تقـــتري بالرمـــل أفنـــانَ الزَّهَـــرْ

ثم أشار إلى شعرها الأسود الغزير:

وعـــلى المتنَـــيْن منهـــا واردٌ

حَسَـــنُ النَّبـــتِ أثيـــثُ مُسْـــبَكِرْ

أخذ حسوة من كأسه وتابع:

تَحسِبُ الطَرفَ عَلَيها نَجدَةً
يا لَقَومي لِلشَبابِ المُسبَكِرْ
فَلَهُ مِنها عَلى أَحيانِها
صَفوَةُ الراحِ بِمَلذوذٍ خَصِرْ
إِن تُنَوِّلْهُ فَقَد تَمنَعُهُ
وَتُريهِ النَجمَ يَجري بِالظُهُرْ
فَلَئِن شَطَّت نَواها مَرَّةً
لَعَلى عَهدِ حَبيبٍ مُعتكِرْ

ثم أشار إلى أسنانها:

بادِنٌ تَجلو إِذا ما اِبتَسَمَتْ
عَن شَتيتٍ كَأَقاحِ الرَملِ غُرْ
بَدَّلَتهُ الشَمسُ مِن مَنبَتِهِ
بَرَدًا أَبيَضَ مَصقولَ الأُشُرْ
وَإِذا تَضحَكُ تُبدي حَبَبًا
كَرُضابِ المِسكِ بِالماءِ الخَصِرْ

ثم أشار إلى عَجُزها:

وَإِذا قامَت تَداعى قاصِفٌ
مالَ مِن أَعلى كَثيبٍ مُنقَعِرْ

هزت القينة عجزها بغنج ودلال. وأكمل:

تَطـــرُدُ القُـــرَّ بِحَـــرٍّ صـــادِقٍ

وَعَكيـــكَ القَـــيظِ إِن جـــاءَ بِقُـــرْ

لا تَلُمنـــي إِنَّهـــا مِـــن نِســـوَةٍ

رُقَّـــدِ الصَـــيفِ مَقاليـــتٍ نُـــزُرْ

إلى أن قال:

وَإِذا تَلسُـــــــنُني أَلسُـــــــنُها

إِنَّنـــي لَســـتُ بِمَوهـــونٍ فَقِـــرْ

عندئذ هتفت القينة وهي تعيد ملأ كأسه:

- أي عاشق هذا الذي يلاسِنُ معشوقتَه، والعهد به أن يلاطفها ويلاينها بعذب الكلام ورقيقه؟

أجاب وهو يترنح قليلاً:

- عاشق لا يرضى الضيمَ حتى من معشوقته.

ردّت:

- ولكن المعشوقة إذا لَسَنَتْ عاشقها بكلام جافٍ، فإنما تقوله تدّللاً وهي الضعيفة الجناح. أما العاشق فإن خاطبها بمثله فذلك ظلم القوي.

دار طرفة في المكان بين الحضور وصاح:

- غلبتني القينة!

ضحكت وقالت:

- اشهدوا... قينة أفحمت شاعر بكر.

صاحوا جميعاً:

- شهدنا.

* * *

(3)

خرج معبد يتفقد أخاه وإبله، ولما لم يجده عند قطعة الإبل التي أرعاه إياها، ووجدها سائبة دون رقيب، تحوّل إلى غيرها من إبله في موضع آخر، فسأل رعاتها:

- لم أجد أخي عند الإبل التي يسوسها.

أجاب أحد الرعاة:

- هذا يومه الذي يغيب عنها فيه!

اهتز معبد:

- كيف قلت لا أمّ لك؟

أجاب الراعي:

- إنه يَغُبُّها... يرعاها يوماً ويغيب عنها يوماً. وما زال على ذلك منذ حين.

تقبّض وجه معبد، ثم قال:

- وإذ علمتم ذلك فلِمَ لم تعلموني قتلكم الله؟

أطرقوا جميعاً، ثم تجرّأ أحدهم على الجواب:

- إنها نصيبه من الرعي، وهو أخوك. وإبلك قد كثرت، ونحن نفر قليل.

تشجّع آخر على القول:

- وظننا أن ذلك كان بعلمك. ولم تأمرنا بشيء وأنت صاحب الإبل وأخو طرفة! فوسعنا ما ظننا أنه يسعك.

قال معبد مُغْضَباً:

- بئس ما فكرتم وقدرتم وظننتم.

كان على معبد أن يواجه أخاه، فلما لقيه ابتدره بالقول مؤنّباً:

- هل عدت سيرتك الأولى بعد أن ظننا أنك قد رجعت عن غيّك... خمر ونساء وقيان وشعر تتجمّل به لهنّ؟

فوجئ طرفة بلهجة أخيه الشديدة. هل غيّرته كثرة المال كما غيرت كثيراً غيره؟ فأشاح عنه. واستأنف معبد:

- أهذا حقي وحق إبلي عندك وقد عهدت إليك بها؟ تغبُّها فترعاها يوماً وتغيب عنها يوماً لتسرح في شرابك ونسائك؟

اجتهد طرفة أن يتمالك نفسه من الضيق، فقال بشيء من الاحتداد:

- يوم لي، ويوم لكم وللإبل. أليست هذه قسمة عادلة؟

- أي قسمةٍ عادلة إذا أُخِذَت الإبل في يومك؟

أجاب طرفة بأسلوب مشوب بالتهكم:

- لا تؤخذ وهي في جوار عمرو بن هند! وهو جوار منيع لا يُضام. أليس كذلك؟ أم تشكك في منعة عمرو بن هند وهيبته؟ إنك الآن تتعدى عليه.

- عدت إلى هذا؟ كأني بك لم تتغيّر.

- وهل تغيّر الناس؟

- دعني من الناس... إنما أنا في همّ إبلي... كان حقاً عليك أن تسرح بها في كل يوم كما يفعل...

لم يكمل عبارته إذ التفت إليه طرفة بوجه شديد العبوس واقتحمه بنظره وقال:

- كما يفعل سائر الرعاة! هذا ما صرتُ إليه... راعٍ كسائر الرعاة وإن كانت إبل أخي.

قال معبد:

- بل لأنها إبل أخيك وميراث أبيك، فأنت أوْلى الناس بأن تحفظها. ما يفعل شعرك ذاك إذا أُخِذَتْ؟ هل يردّها عليّ!

هنا بلغ الغضب بطرفة كل مبلغ وقد نفذت إليه الإهانة، فقال بأسلوب قاطع:

- أتعدل إبلك العجفاء بشعري؟ أتهزأ بشعري وهو أنا؟ لا بأس... فوالله لا أخرج فيها أبداً حتى تعلم أن شعري سيردّها إذا أُخِذت. وانصرف عنه بخطىً سريعة.

* * *

كان المتلمس أيضاً قد عاد من الحيرة لبعض الوقت. فلم يجد معبد غيره يشكو له ما لقي من طرفة. وأنهى حديثه بالقول:

- وقد ظننا أنه صحا وعاد إلى رشده.

هز المتلمس رأسه أسفاً وقال:

- إني لأرثي لهذا الفتى. أرثي له حقاً!

نظر إليه معبد متعجباً، وتابع المتلمس:

- لا يغرَنّك ما ترى من عبثه ولهوه وتقلّبه.. يا ابن أخت، اعلم أن أبصر الناس بعورات الحياة أكثرهم هماً وغمّاً وأرقاً. ولعمري إن الحياة مليئة بالنقص والخلل والعورات. وإن أخاك أحَدُّنا بصراً وأنفذنا رأياً وأرهفنا حسّاً. وقد أوتي نفساً كمعدن المرآة الصقيل، لا تظلم الجميل ولا تجمل القبيح. غير أن القبح في الحياة أكثر. أو كأنّ نفسه ماء غدير صافٍ، لا يخالطه شيء من الكدر إلّا ظهر فيه.فماذا عساه يفعل وهو ما زال محيَّراً بين مثال نفسه وبين حال البشر، فلا هو يستطيع أن يجعل الحياة على مثال نفسه، ولا هو يستطيع أن يجعل نفسه على صورة الحياة وناسها. (وقد جرّب الفرار من قومه حين خرج منهم، ثم جرّب الفرار من نفسه حين عاد إليهم) فلا اطمأنت نفسه بهذه ولا بتلك. فهو بين حَجَرَيْ الرحى، أو بين حَبْلين يتجاذبانه: كل إلى جهته. هذا هو أخوك، وتلك أسباب ما تجد منه. فترفق به هُديت الرشد.

أطرق معبد متفكراً وقد وقع كلام المتلمس في نفسه.

حاول مراراً أن يقنع أخاه بالعودة إلى عمله معه، بل ألحّ في الرجاء حتى تذلّل له. ولكن طرفة أبى، وبقي على شرطه: حتى يعلم أخوه أن شعره يردّ إبله إذا أُخِذت حين لا يرّدها السيف!

وقد كان...

لكأن القدر الذي ما زال يجري على غير هواه، قد أراد أن يطاوعه هذه المرة! وحين رأى معبد أحد رعاته يقبل عليه مهرولاً وقد بدا الفزع على وجهه، علم أن ثمة داهية وراءه.. وسبقته صيحته:

- أدرك إبلك يا ابن العبد!

قوم من مضر عدوا على الإبل التي أوكل بها أخاه طرفة، فساقوها معهم.

أخذ معبد يضرب كفاً بكف، ويغمغم بكلام غير مفهوم. ثم هرع إلى نادي قومه يستنصرهم ويدعوهم إلى النفير لاستنقاذ إبله. ولكنهم تقاعسوا عنه، واحتجوا بأن النفرة تحتاج إلى وقت في جمع الرجال والسلاح، والناس متفرقون في أعمالهم ومواضع إبلهم ونخيلهم. فما إن يجتمعوا بعددهم وعدتهم حتى يكون ذلك الرهط من مضر قد أوغلوا في الأرض. ثم إنهم في طاعة عمرو بن هند، ولا يسعهم أن ينهضوا إلى أمر قد يفضي إلى حرب مع مضر، إلّا أن يتولاّها عامل عمرو بن هند على هجر بإذن سيده وأمره. فهو صاحب القرار في الحرب والسِّلم.

ولم يكن عامل هجر ولا سيدّه ليتكلفوا حرباً من أجل سبعين من الإبل لم يحسن صاحبها حفظها. ومثل ذلك وقع كثيراً. فهل يستهلك عمرو بن هند جهده وجنده في حفظ إبل هذا وإبل ذاك في بلاد واسعة؟

* * *

صاح طرفة بعامل هجر والبحرين: ربيعة بن الحارث العبديّ:

- ألسنا في طاعة الملك وحماه وجواره؟ وأولئك القوم من مضر أليسوا كذلك في طاعته؟ فكيف يُغار علينا ويؤخذ مالنا ثم لا ينتصر لنا ويرد علينا حقنا المنهوب، بل كيف لا ينتصر لنفسه وقد تجرأت مضر على سطوته وهيبته وسلطانه، أيكون علينا الغرم له فيما يقتضي من أموالنا، ثم لا نجد منه مغنماً؟

قال عامل هجر مترفقاً:

- خفِّض عنك يا ابن العبد إنما أنا خادم الملك، لا أشاء حتى يشاء. وقد كتبت له في الأمر لأبرئ ذمتي فيكم، ولم يأتني منه شيء. وإنما هي سبعون من الإبل. وأخوك ذو مال كثير، لن يفتقر بما ضاع منه. فلِمَ هذا الضجيج؟

حين يئس طرفة منه، أطرق قليلاً ثم رفع رأسه وأنشد:

لَعمــرُك مــا كانــت حمولــةُ معبــدٍ
عــلى جُــدِّها حربــاً لــدينِكَ مــن مُضَــرْ
وعمــرو بــن هنــدٍ كــان ممّــن أجارهــا
وبعــض الجِــوارِ المُسْــتَغاثِ بــه غَــرَرْ
أعمــروَ بــنَ هنــدٍ مــا تــرى رأيَ صَرْمــةٍ
لهــا شــنبٌ ترعــى بــه المــاءَ والشَّــجَرْ

قال العامل:

- تراك بهذا تستغيث بعمرو بن هند أم تستغضبه إذ تجعل جواره غَرَراً؟ لا يسمَعَنّك أحدٌ تقوله، فتحرجني فيك.

مضى طرفة خارجاً بخطى سريعة.

* * *

أمضى نهاره خارج القرية يتمشى وحده في البرّ، والأفكار تتزاحم في رأسه. ماذا عساه يفعل من أجل أخيه وقد خذله في ترك إبله؟ ولكن، حتى لو لبث واقفاً عليها، هل كان في وسعه أن يذب عنها جماعةً كبيرة من مضر؟ وماذا عن وعده بأن يردّها بشعره إذا أُخِذت؟ وقد أُخِذت، ولكنه لم يفكّر حين قطع على نفسه ذلك الوعد أنه سوف يتعرض للاختبار حقاً، فقد قالها دون تدبّر ولم تكن إلا نفثة صدر واعتداداً بنفسه وشعره. وهل يحقق الشعر ما عجز عنه السيف وسطوة ابن هند؟ ولمن يتوجه بشعره في هذا؟ وشعر أن الأرض تضيق عليه. يجب أن يعوِّض أخاه ما ضاع منه. ولكن، إن لم يكن بالسيف ولا بالشعر، فبِمَ وكيف؟

* * *

حين طرق الباب على ابن عمّه مالك، لم يتوقع هذا سبب زيارته. ولم يتأخر طرفة في الكلام:

- أنصِت يا مالك. والله لأن أتجرّع السمّ أهون عليّ من أن آتيك الآن في مسألتي. ولكنها الضرورة، أن أفي بذمّتي إلى أخي.

أدرك مالك وجهة الكلام، فأحب أن يقطع الأمر في أوّله:

- تعني إبل أخيك التي أُخِذت منه؟ تريد أن أعطيك من إبلي بعددها لتردها على معبد؟

قال طرفة:

- وأعدك إن أعطيتني إياها أن أجزيَك بها ما حييت.

- وكيف؟ تمدحني بشعرك: إن فحلاً من الإبل عندي بألف قصيدة. ما أحسن هذا! فرّطت فيها، ثم أقبلت تتعب نفسك في طلبها؟ أرِح واسترح! فلا والله لا سبيلَ إلى ذلك.

ثم أغلق الباب في وجهه. ومضى طرفة هائماً على وجهه لا يدري ما يصنع.

فَـــما لي أرَاني وابـــنَ عمـــيَ مالِكًـــا
مَتـــى أدْنُ مِنْـــهُ يَنـــأَ عنـــي ويَبْعَـــدِ

يَلُـــومُ ومـــا أدري عَـــلامَ يَلُـــومُني
كـــما لامنـــي في الحـــي قُـــرْطُ بـــن مَعبـــدِ

وأيأسَـــني مِـــنْ كـــلّ خَـــيرٍ طَلَبْتُـــهُ
كأنّـــا وَضَـــعناهُ إلى رَمْـــسِ مُلْحَـــدِ

عـــلى غَـــيرِ شَيءٍ قُلتُـــهُ غَـــيرَ أنّنِـــي
نشَـــدْتُ فَلَـــمْ أُغْفِـــل حَمولَـــةَ مَعبَـــدِ

وَقَرّبْـــتُ بِـــالقُرْبَى وَجَـــدِّكَ إنّنِـــي
مَتَـــى يَـــكُ أمْـــرٌ للنكيثَـــةِ أشْـــهَدِ

وَإِنْ أُدْعَ للجُـلّى أَكُـنْ مِـنْ حُماتهـا

وإنْ يأتـكَ الأعـداءُ بالجَهـدِ أجهَـدِ

وإن يقـذِفوا بالقـذعِ عِرْضَـكَ أسـقهمْ

بكـأسِ حيـاضِ المَـوتِ قبـلَ التهـدّدِ

فَلَـو كَـانَ مـولايَ امْـرَأً هُـوَ غـيرُهُ

لَفَـرّجَ كَـرْبي أو لأَنْظَـرَني غـدي

وَظُلْـمُ ذَوِي القُرْبَـى أَشَـدّ مَضَاضَـةً

عـلى المَـرْءِ مِـنْ وَقـعِ الحُسـامِ المهنّـدِ

فلـوْ شَـاءَ رَبِّي كنـتُ قـيسَ بـن خالِـدٍ

ولـوْ شَـاءَ رَبِّي كنـتُ عمـرو بـن مَرْثَـدِ

فأصْـبَحتُ ذا مـالٍ كثـيرٍ وزَارَني

بَنُـونَ كِـرامٌ سَـادَةٌ لِمُسَـوَّدِ

بعد أيام، جاءه خادم عمرو بن مرثد، سيد قيس بن ثعلبة، حيّ طرفة من بكر، يدعوه للقاء سيده على عجل. فلما صار إليه وجده يجلس بين بنيه السبعة، وثلاثة من ولد ولده. رحّب به ودعاه إلى الجلوس وقال:

- قد سمعت قولك:

فلـو شـاء ربّي كنـتُ قـيسَ بـن خالـدٍ

ولـو شـاء ربّي كنـتُ عمـروَ بـن مرثـدِ

فأصـــــبحتُ ذا مـــــالٍ كثـــــير وزارني

بنـــــونَ كـــــرامٌ ســـــادةٌ لمُسَـــــوَّدِ

تريّث لحظة ثم قال:

- أما الولد، فالله يعطيكهم. وأمّا المال فسنجعلك فيه أُسوتَنا. فلا تبرح حتى تكون من أوسطنا مالاً.

* * *

لم يصدّق معبد عينيه وهو ينظر إلى مائةٍ من الإبل سيقت إلى مرعاه، وطرفة يرمقه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة فوز عريضة.

وقال معبد:

- كل هذا من عمرو بن مرثد؟

هز طرفة رأسه.

- أمر بنيه السبعة أن يعطوني عشراً عشراً، فكانت سبعين بعيراً. ثم أمر ثلاثة من بني أبنائه بمثل ذلك. فاكتمل عددها مائةً كما ترى.

- لي منها سبعون بعدد ما أُخذ مني، والباقي لك. فلا تفرّط بها نشدتك الله.

قال طرفة:

- والآن، ما رأيك؟ هل ردّها شعري عليك كما وعدت؟

ولكن طرفة ما كان ليمسك مالاً. فلم تمضِ شهور حتى كان قد أنفق نصيبه منها في الخمر والميسر والقيان والندامى:

نـــداماي بـــيض كـــالنجوم، وقينـــة

تـــروح علينـــا بـــين بُـــرْد ومَجْســـد

رحيـــبٌ قِطـــابُ الجيـــبِ منهـــا رفيقـــة

بِجَـــسّ النـــدامى بَضّـــةُ المُتَجَـــرَّدِ

إذا نحـــن قلنـــا: أســـمعينا انـــبرت لنـــا

عـــلى رِسْـــلِها، مطروفـــةً لم تَشَـــدَّدِ

إذا رجَّعَـــتْ في صـــوتِها خِلْـــتَ صـــوتَها

تجـــاوبَ أظـــآرٍ عـــلى رُبَـــعٍ رَدي

ولم ينسَ نصيب الفقراء واليتامى والأيامى.

وعاد معبد يلومه ويعذله، في حضور خالهما المتلمس. وعلّق طرفة:

- هذا أخي معبد. ما أشبه الليلة بالبارحة.

قال معبد بنبرة التأكيد وردّ العبارة على قائلها:

- صدقت. ما أشبه الليلة بالبارحة. ولكن ماذا عن الغد؟ من أين تنفق غداً؟

أجاب طرفة بأسلوب عفوي:

- من شعري.

اتسعت عينا معبد متعجباً، وتنبهت ملامح المتلمس. واستأنف طرفة.

- ألم ترَ أن عمرو بن مرثد ابتاعني بيتين من الشعر، لم أذكره في غيرهما، ولم أصرّح فيهما بمدحه، إنما ذكرت كثرة ماله وولده، ابتاعهما مني بمائة بعير؟! أليس هذا أفضل مما تصنع أنت في عام أو عامين، وربما أكثر؟

صمت معبد لحظة، ثم سأل من جديد:

- ذاك عمرو بن مرثد. فلمن تبيع غداً؟

استدار طرفة وأرسل نظرة طويلة متمعنة إلى خاله المتلمس، وقد لاحَ على وجهه طيف ابتسامة غامضة! ولم تطل حيرة المتلمس فيها.

* * *

على باب الملك

(1)

لم تفارق الدهشة المتلمس وهو يقطع الطريق إلى الحيرة مع طرفة، منذ فاجأه بطلبه أن يصحبه إلى عمرو بن هند، ويقدّم له عنده!

وأطلق المتلمس ضحكة ساخرة، إذ استذكر جواب طرفة القاطع المانع له حين اقترح عليه من قبل الذهاب إلى عمرو بن هند. التفت إليه طرفة:

- أعلم ما في نفسك.. تقول: ما باله قد رضي لنفسه الآن ما أنكره من قبل أشدّ الإنكار حين دعوته إليه ورغّبته فيه!

أجاب المتلمس بأسلوب متهكم مردِّداً كلام طرفة القديم ومقلِّداً طريقة كلامه:

- لا والله لا آتيه ما أطّت الإبل وما حنّت النّيب وما... ماذا أيضاً!! نعم.. وما حملت عينك الماء. لم يسعك حينئذٍ أن تكتفي بالقول: لا أفعل، حتى أتيت بكل تلك الأمثلة. نعم... من يَعِش يَرَ، وأنت القائل:

ستبدي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلاً

ويأتيك بالأخبار من لم تُزَوّدِ

شاركه طرفة في الضحك ساخراً من نفسه. وحين أناخا في الليل وجلسا يتسامران، كان مزاج طرفة قد تحوّل إلى الجدّ، والتأمّل.

وتحدث بما يشبه البوح... بوح الاعتراف الذي يزيح عن النفس بعض ما تكابد من عوراتها وانكساراتها وانحدارها... فكان بوحه لنفسه قبل خاله:

- ليس ثمة ما هو وليد الساعة... فلا ينام الرجل على مذهب ثم يصحو على ضدّه... وهذا طريق لم أنحدر إليه فجاءةً حين طلبت أن أصحبك إلى عمرو بن هند، فأكون معك في جملة ندمائه. ولكنه بدأ حين خرجت مع أخيه عمرو بن أمامة... أُعذِر نفسي أنه ثائر مظلوم... وحين انقضى ذلك وراجعت نفسي فيه، ذكرت أنه لم يكن غير أمير من بني المنذر ينازع أخاه على الملك، إلا أنه كان أضعفهما. ولا ينبغي أن يلتبس الضعف بالخير والحق والصدق، فلا يغلب خير الرجل إلا مع قيام القدرة على الشر والخير معاً. ثم حين راجعت نفسي كرّة أخرى وصَدَقتُها، أقررت أني ما خرجت معه إلا للتوصل معه في المقام الأول، إذا صار ملكاً. ثم كان من طريق انحداري أني أذللت نفسي في رعي إبل معبد، ثم في وقوفي بباب ابن عمي مالك أستعطيه ليردني ردّاً قبيحاً، ثم في توسّل شعري عند ابن مرثد.

تنهّد تنهيدةً حرّى، وأكمل عنه المتلمس:

- فلما فعلت ذلك كله مع من هو دون الملك، ذهبت أسبابك في الامتناع عن صحبته وصلته إن استطعت...

هز طرفة رأسه هزة خفيفة وهو سادر في سهومه. واستأنف المتلمس مواسياً:

- لا بأس عليكَ يا ابن أخت... إن لك أسوة في فحول الشعراء: النابغة الذبياني.. الحارث بن حلّزة... وآخرون... كلهم

قدم على بني المنذر.. وأنا أيضاً.. على أنك تقدّمت علينا جميعاً بطويلتِك... «لخولة أطلالٌ»... ما تنافسها إلا طويلة امرئ القيس... بل لعل قصيدتك أحسن من قصيدته... غدت وما في العرب أحد إلا ويتمثل ببعضها على حسب حاله... فمن واقف على الديار يتمثل بمطلعها، ومن رجل ظلمه أهله، فهو يتمثل بما فيها عن ظلم ذوي القربى:

وظلـــم ذوي القربـــى أشـــدُّ مضاضـــةً

عـــلى الـــنفسِ مـــن وقـــع الحســـام المهنّـــدِ

ومن ذكر الموت وتصاريف الدهر وجد فيها ضالته وسلواه.. ومن طلب الحكمة وجدها... كذلك من طلب اللهو واللذات وأحب أن يسوّغ لها بالنظر في أحوال الحياة، أو طلب الفخر بنفسه... وكل ذلك في وعاء واحد! فأين نجد هذا كلّه في قصيدة واحدة تحيط بأحوال الحياة وتقلّباتها؟ فقرّ عيناً يا ابن أخت، فقد أدركت بالشعر ما لم يدرك السابقون، ولسوف يبقى العرب منشغلين بشعرك ما...

تريّث لحظة، ثم استأنف بلهجة مرحة:

- ما أطّت الإبل وما حنّت النيب وما حملت العيون الماء!

ضحكا معاً... وأخذ طرفة يتحسس خرزة خولة في طوق عنقه.

* * *

(2)

أخيراً... ذلك الشاعر المعتد بنفسه، الذي حرّض عليه قومه مرةً، وخرج مع أخيه الآبق أخرى، ثم جاء يحرضه على الثأر له... ها هو يقبل عليه راجياً صحبته ومنادمته يتوسط له في ذلك خاله المتلمس... وتعجب هذا من سرعة استجابة الملك وترحيبه وانبساط أساريره! فقد توسّط عنده على تردد ووجل أن يردّه ردّاً قبيحاً، أو يناله غضبه. ولكنه لم يفعل، وما كان للمتلمس أن يعلم ما يدور في رأسه. ليس أهون على الملك الجبار من أن يضع السيف في نحر شاعر مغتر بنفسه، مخالف له. فيموت حميداً مذكوراً يحظى بعطف الناس. أحسن من ذلك وأكثر إمعاناً في النكاية أن يراه الناس وقد تجرّد من غروره وترفّعه ورضي أن يقف على باب الملك في انتظار إذنه، يرجو عطاءه وصلته! فلا يبقى له بعد ذلك حجةً لنفسه ولا حجة على الملك بين الناس. ذلك هو الموت الأول... موت الكرامة وادعاءات الأَنَفَة. فإذا كان ذلك وعلمه الناس، هانَ عليه أن ينزل به الموت الثاني... إن شاء... ومتى شاء! ذلك أحرى بمثل هذا الشاعر الذي بدا للملك أنه لا يخشى الموت حين دخل عليه محرّضاً في دم أخيه الثائر الذي انحاز إليه. فلو تعجل في قتله وهو على تلك الحال، لما بلغ منه شيئاً، بل ربما أعطاه ما يطلب! ولكن، فليدعه أولاً ينعم بصحبته وصلته، حتى يحب الحياة، ويكره الموت! عندئذٍ فقط يكون الخسران العظيم!

لم يقدِّر الملك في تلك الساعة أنه سوف يستمتع حقاً بصحبة الفتى: بشعره وظرفه ونوادره وأخباره وقوة نفسه. فقد اعتاد من زواره وندمائه مسلكاً واحداً مكروراً مملاً من نفاق الخائف وذلة الخادم. فليس فيهم صاحب على الحقيقة يتبسط معه دون رسوم الملك وهيبة السلطان. وهذا الفتى يدخل عليه متخلّجاً في مشيته، ويكتفي بانحناءة قصيرة، ثم إذا دارت الكؤوس بينهما تراخت حجب السلطان، فهاما معاً في كل وادٍ من وديان الشعر والغزل وأنواع النساء وأحوال البشر وطبائع الحياة. يخلعان العِذار ويتبسّطان ويضحكان ويفضي أحدهما إلى الآخر دون رادع.

لا، لم يستمع طرفة إلى نصائح خاله وزوج أخته في رسوم الدخول على الملك والجلوس عنده ومخاطبته، فلا يحتبي أحد في مجلسه، ولا يخاطبه حتى يقبل عليه بوجهه ويستفتح له الحديث، فإذا كلّمه بدأ بعبارة «أبيت اللعن». وتعجبا كيف يصبر الملك عليه إذ رفع الكلفة بينهما على ذلك النحو. ولربما شعر عبد عمرو بن بشر بالغيرة والحسد، بقدر ما شعر بالخوف على نفسه إذا ضاق الملك يوماً بجرأة طرفة، فيحتمل جريرته وهو ابن عمّه وزوج أخته.

- إنك لتكثر من ذكر الموت على صغر سنك؟

سأل عمرو بن هند بعد الكأس الثالثة. ثم أردف:

- أهو الخوف؟

أجاب طرفة بثقة:

- بل الشجاعة..

- وكيف ذلك؟

- من أيقن أن الموت لن يخطئه بكل الأسباب، أقبل على الحياة يعُبّها عبّاً، ويقتحم الشدائد، ولم يبالِ بالعواقب. وإنما جَبَّنَ الجبان طول الأمل في الحياة.

- وذلك قولك:

ألا أيّهـــا الزاجـــري أشـــهدَ الـــوغى

وأن أحضـــرَ اللـــذاتِ هـــل أنـــت مُخْلـــدي

فـــإن كنـــت لا تســـتطيع دفـــع منيّتـــي

فـــدعني أبادِرْهـــا بـــما مَلكـــتْ يـــدي

هتف طرفة وهو يرفع كأسه:

- وهل الحياة إلا ذاك؟ شربة على ظمأ، وكرٌّ حين الفزع، ثم امرأة جميلة حسناء أقصر بها نهاراً غائماً أو ليلة بطيئة النجم.

ذهب الملك في التفكير والتأمل. وفاجأته نفسه بشعور خفي غامض بالغيرة من هذا الفتى الذي لم يحتجب عن متع الحياة البسيطة العفوية وراء رسوم السلطان، وليس عليه أن يستجلبها قهراً إلى حوزته المغلقة بالترغيب والترهيب، بدلاً من أن يخرج إليها في مواضعها في عالمها الرحيب! فيلقاها على غير تدبير وتخطيط.

ثم سأله:

- تلك القصيدة الطويلة... أيّ أبياتها أقرب إلى نفسك...

أجاب طرفة:

- كلها أبيت اللعن... فهي في مجموعها نفسي. ولكن إن كان لا بد فهذه الأبيات:

إذا القـومُ قـالوا مـن فتـىً، خلـت أننـي
عُنيــتُ، فلــم أكْسَــلْ ولم أتبَلــدِ
أنــا الرجــل الضَّــرْب الــذي تعرفونــه
خشــاشٌ كــرأسِ الحيّــة المتوقّــدِ
فآليــتُ لا ينفــكُّ كشــحي بطانــةً
لِعَضْــبٍ رقيــق الشــفرتين مهنّــدِ
حســامٍ، إذا مــا قمــتُ منتصــراً بــه
كفـى العَـوْدَ منـه البَـدْءُ، لـيس بِمُعْضَـدِ
أخــي ثقــةٍ لا ينثنــي عــن ضريبــةٍ
إذا قيــلَ مهــلاً قــال حــاجِزُه: قَــدي
إذا ابتــدر القــومُ الســلاح وجــدتَني
منيعــاً إذا بُلّــت بقائِمــه يــدي

ألم يجد غير هذه الأبيات التي يفخر بها بنفسه يلقيها على مسمع الملك الذي لا يجوز في حضرته غير مدحه؟ ما زال هذا الفتى معتدّاً بنفسه. وما فعل هذا ليُسْمع الملك فقط، وإنما ليسمع نفسه أيضاً، يعدل بها عزّة نفسه التي نزل بها وروده على الملك، وليُعلِم الملك أنه ليس كغيره من الندماء وأهل الخدمة! أما الصحبة، فنعم.

وبالطبع لم يعجب ذلك الملك، على الرغم من نشوة الخمر التي بدأت تخالط عقله. ولكنه أسرّها في نفسه. ما زال عند هذا الفتى ما يستحق الصبر عليه... إلى حين!

ولكن شقيقه قابوس كان أقلّ صبراً وأكثر تعجّلاً واندفاعاً. فأمعن في لوم أخيه يوماً بعد يوم يتعّجله الانتقام. وحين ضجر منه الملك قال:

- لا تعجل عليّ، فما زال بي حاجة إليه، فإذا انقضت قضيت فيه.

ردّ قابوس متعجباً:

- الملكُ في حاجة هذا الشاعر الذي ما زال هائماً على وجهه؟ لم يطقه قومه ويطيقه الملك وقد علم جرائره؟ ثم لا يزيد على أن يفتخر بنفسه عندك؟

أجاب الملك بلهجة صارمة:

- كم مثله يدخل علينا من الرجال؟ لا نرى إلا ضباعاً وأرانب وأبناء آوى. لا يشربون إلّا من بقية سؤرنا، ولا يأكلون إلا من بقية فرائسنا، ولئن كنا نفسح لهم عندنا فما ذاك إلا أنه من تمام المُلك وجود المملوك!

صمت لحظة، ثم أردف بلهجة مختلفة:

- على أن الأسد وإن أُعجِب بندّه وشبيهه، فليس يضرّه شيء مثل وجوده في حماه. فإن الأجمةَ لا تتسع للأنداد.

ثم التفت إلى شقيقه وأكمل:

- ندعه حيناً آخر حتى تعجبه الحياة ويطول فيها أمله، ويخشى الموت وهو الذي يقول: إنما جَبّن الجبانَ طول الأمل بالحياة، وخشية الموت. وقد صدق.

ما لم يتعجّل به الملك، على الرغم من مشورة أخيه، عجّل به طرفة نفسه! فها هو في مجلس أنس مع الملك وحده، يتساقيان الخمر ولا يقتصدان. وكان الملك يحب أن يختلي به في ساعات أنسه، كيلا يشهد الآخرون تبسطّه معه فيتجرّؤوا. وكان طرفة يقص عليه من طرائف أخباره مع النساء، والملك آخذٌ بالضحك...

- ... ثم حين صرت عند خبائها في جوف الليل، انتظرت حتى سمعت زوجها يغطّ بالنوم غطيط الفحل... وكان ذا فم أبخر كريه الرائحة... وإني لأشمّ تلك الرائحة من مكاني... فوالله ما وجدتني في موقف أشدّ من ذلك الموقف. إذا كتمت نفَسي اختنقت، وإن أرسلته اختنقت بتلك الرائحة. وكانت الريح عدوّي معه، فهي تهب من جهة الخباء نحوي، فتحمل معها نَفَسه الخبيث. وأدركت ساعتَها ما الذي يطرد الوحش واللص عن بيته، مع غناه وخموله.

أمعن الملك في الضحك وقال:

- رائحة نَفَسه! هذا سلاح لم نختبر مثله بعد. دلّني عليه فلعلي أسلّطه على بعض عدوّي، فيكفيني مؤونة الحرب والسلاح.

انطلقا معاً في الضحك، وسأل الملك:

- وما الذي دعاها إلى الزواج برجل مثله، على جمالها الذي وصفت؟

- إن له شرفاً في قومه، على الرغم من ذاك، وهو ذو غنىً ومال.

- أكمل...

- فلما تيقنت من نومه وكان ثقيلاً في فراشه، تحاملت على نفسي وغمزت الخباء بقدمي، وهي علامة بيني وبينها، فخرجت متسللة تجرّ ذيلها العطر، وتبسم عن أسنان مثل البَرَدْ، تسطع في ضوء القمر...

وإذا تضـــــحك تُبْـــــدي حَبَبـــــاً

كرضـــاب المســـك بالمـــاء الخَصِـــر

فواستني بطيب فمها عما لقيت من فم زوجها، وبتّ بأحسن ليلة في حياتي!

مضيا على الشرب ساعات أخرى، حتى بدا أن الملك قد تعتعه السُّكُر، فثَقُل لسانه وانطبق جفناه. وكان طرفة أصبر منه على الشراب، وإن كان قد بلغ منه مبلغاً دون الملك. فأخذ مرآةً قريبة ينظر في وجهه، وشدّ جفنه عن عينه المحمَرة،وفجأة تنبه وجهه وأخذته الدهشة، إذ انعكست على المرآة صورة فتاة بارعة الجمال لم يرَ في مثل جمالها قط، تقف في الرواق الذي ينفتح على المجلس، تنظر. التفت نحوها، وخيّل إليه أنها تبتسم له ابتسامة هادئة. ثم لم تلبث أن اختفت عن أنظاره مخلّفة طرفة في حال من الانبهار والذهول. هل كانت حقيقة رآها بأم عينيه، أم مثّلها له خيال شاعر خالطته الخمرة، فاختلط الأمر عليه؟ ثم نظر إلى الملك فوجده مغمض العينين ينوء بسُكْره. وإذ كان السُّكْر قد غلب على عقل طرفة، فقد أسلم نفسه لغواية الشعر وفتنة الجمال الأخاذ الذي رآه في لحظة عابرة، فوجد نفسه يقول:

ألا بـــأبي الظبـــيُ الـــذي يـــبرق ثَـــنْفاهُ

ولـــولا الملـــك القاعـــدُ قـــد ألثمنـــي فـــاهُ

لا لم تكن خيالاً تواطأت في خلقه الخمرة والرغبة الجائعة!

كانت حقيقة... حقيقة ممنوعة! كانت أخت الملك... الملك الذي يسمع ويرى، حتى وإن بدا أنه قد ذهب في سكرة الخمر وسكرة النوم!

إذن، فهو كما قال شاعر آخر في موقف مختلف: «اليوم خمر، وغداً أمر».

* * *

(3)

- يقول الملك: ارجعا الآن. ويراكم بعد غد.

مضى شهران على تلك الحال. كلما جاء المتلمس وطرفة إلى قصر الملك، أوقفهما الحاجب في دهليزه، وأمرهما بالانتظار حتى يأذن الملك لهما بالدخول عليه، فإذا انقضى النهار وملّا الانتظار، رجع إليهما الحاجب بالعبارة نفسها «بعد غد!». ولو كان الأمر إليهما لانقطعا عن المحاولة بعد هذا الوقت، وقد صار واضحاً أنه لا يرغب في لقائهما. وليته يأمر بألا يرجعا عليه فيعفيهما من ذلّ الانتظار بلا جدوى، على أعين الداخلين والخارجين. ولكنه لا يردّهما اليوم إلّا مع الأمر أن يعودا إليه بعد غد. وكما أنهما لا يستطيعان الدخول عليه بغير إذنه، فإنهما لا يستطيعان مخالفة أمره بالقدوم إليه: بعد غد!

صاح المتلمس إذ خلا بابن أخته بعد رجوعهما خائبَيْن:

- ما الذي اعتراه؟ وما الذي غيّره علينا؟ أما والله ما يريد إلّا إذلالنا وأن يرانا الناس ببابه على تلك الحال.

قال طرفة بصوت خفيض وهو يقف مستديراً عن خاله:

- تراه رآني أنظر إلى أخته، وسمعني أشبّب بها؟!

دق المتلمس على صدره:

- أوَقد فعلت؟

- كنت ثملاً... وكانت تقف في الرواق، وما كنت أعلم أنها أخته حتى...

قاطعه المتلمس صائحاً متهكماً:

- وظننت أنها زوجه؟

- وبدا أنه قد ذهب في النوم وقد أثقله السُّكْر.

- عدمتك ما الذي دهاك؟

التفت إليه طرفة مع ابتسامة خفيفة، وقال غير مبالٍ:

- دهاني أني رأيت جمالاً لم أرَ مثله قط، بياض ناصع كالفضة، وشعر كالليل، وأسنان كاللؤلؤ، وشفتان ممتلئتان استعارتا من الورد لونه، وعينان دعجاوان تقتلان الحي، وتحييان القتيل... قد زانت بها حليّها أكثر ما زانت بها. فنفسي فداؤها. وما ضرّني لو متّ بعد تلك النظرة الآسرة.

اقترب من خاله وربّت على كتفه متحبباً:

- على أني لم أمت، ولو كان قد رأى وسمع، فلماذا أجّلني؟ إنما هو الظنّ...

رد المتلمس متبرماً.

- وليس الظن كاليقين... وهو لنا أو علينا... وإلّا فلِمَ حجبنا عنه كل هذا الوقت وأذلّنا أمام أعين الناس؟ ولِمَ فعل هذا بي وبك ولم يفعل مثله مع زوج أختك؟ أمّا أنت فلِما بدر منك، وأما أنا فلأني كنت سبيلك إليه... ولعله ذكر أني هجوته يوماً!

قال طرفة:

- لِمَ لا تقول إنه استبقى زوج أختي لأنه يعمل له عمل الخادم؟ وليس وراء ذلك شيء.

ثم شرد بنظراته بعيداً، وهمس:

- بعد غد... بعد غد! أما غده فللقطا والكِرْوان والغزلان... وأما بعد غد...!

لم يكمل عبارته، وأكمل عنه المتلمس:

- فلذلّ الوقوف في بابه. اللعنة عليه!

دهش طرفة من تحوّل خاله من لومه إلى الغضب من ابن هند وصبّ اللعنات عليه.

لم يستطع عبد عمرو بن بشر، زوج الخرنق، أن يخفي تشفّيه بما صار إليه أمر طرفة مع الملك. فتعمّد أن يردد على سمعه أنه خارج معه غداً في صيده، على مجرى العادة. فلما تكرر منه ذلك، قال طرفة ساخراً:

- لا ريب.. وهل يخرج الملك إلى صيده بغير آلاته وخدمه؟

انتفض ابن بشر وردّ من فوره:

- هه! أمنزلي عنده خير، أم وقوفك ببابه على تلك الحال؟

ثم أحب أن يمعن في النكاية:

- لماذا لا تتوسّله بقصيدة عصماء تمدحه فيها، لعلّه يرق لك فيأذن لك؟

صمت طرفة هنيهةً منقبضاً، ثم قال:

- رأي حسن. وذا قولي فيه.

فَلَيــتَ لَنــا مَكــانَ المَلْــكِ عَمــرٍو
رَغوثــاً حَــولَ قُبَّتِنــا تَخــورُ
مِــنَ الزَمِــراتِ أَســبَلَ قادِماهــا
وَضَرَّتُهــا مُرَكَّنَــةٌ دَرورُ
قَسَــمتَ الــدَهرَ في زَمَــنٍ رَخــيٍّ
كَــذاكَ الحُكــمُ يَقصِــدُ أَو يَجــورُ
لَنــا يَــومٌ وَلِلكِــرْوانِ يَــومٌ
تَطــيرُ البائِســاتُ وَلا نَطــيرُ
فَأَمّــا يَــومُهُنَّ فَيَــومُ نَحــسٍ
تُطــارِدُهُنَّ بِالحَــدَبِ الصُــقورُ
وَأَمّــا يَومُنــا فَنَظَــلُّ رَكبــاً
وُقوفــاً مــا نَحُــلُّ وَمــا نَســيرُ

أطلق نَفَساً طويلاً إذ فرغ من هذا الهجاء المقذع، وبدا كأنه تخفّف من حمل ثقيل كان يجثم على صدره، واجتمع فيه شعوره بالقهر من الملك، ولومه لنفسه أنه رضي أن ينزلها هذا المنزل الوطيء!

ولكن هذا المنزل الوطيء لم يكن هو القاع الذي ليس بعده هبوط. فبعد أيام، وبعد انتظارهما الطويل المعتاد في دهليز الملك،

جاءهما الحاجب، وقبل أن يقول شيئاً سبقه طرفة بالقول بأسلوب مشوب بالتهكم:

- بعد غد! أليس كذلك؟

ولكن الجواب كان غير المتوقع هذه المرة. لا، ليس بعد غدٍ ولا بَعْدَ بعد، فقد قرر الملك أن يجعلهما في ندماء أخيه وولي عهده قابوس، بدلاً منه!

مهانة أخرى، وتخفيض في المرتبة. وأشدّ منها معاملة قابوس لهما. فكان يجلسهما في آخر المجلس، ويشيح عنهما بوجهه. فإذا أراد أحدهما أن يقول شيئاً انصرف عنه إلى من يجاوره بالكلام والهمس. ثم ما لبث أن مضى معهما على طريقة أخيه الملك، فيردهما الحاجب بعد طول انتظار: «عودا بعد غد».

بلغ السيل الزبى. ولن يرضيا بالمذلة أكثر من ذلك، فلن يعودا إلى شقيق الملك، لا بعد غد، ولا فيما بعد! وليكن ما يكون.

كانا منطرحين على الحشايا وقد أسرفا في الشراب ولعبت بعقليهما الخمر وزالت الروادع وغابت عين الرقيب، في البيت الذي كانا يسكنان فيه معاً... وقد انخرطا في ضحك متصل بينما كانا يسخران من نفسيهما هذه المرة. وصاح طرفة:

- لا والله لا أرجع إلى ذلك المخبول الممرور، ما حملت عيني الماء...

وأكمل عنه المتلمس:

- وما أطّت الإبل، وما حنّت النّيب!

ضحكا من جديد، وهزّ المتلمس إصبعه أمام طرفة وقال:

- لا تلزم نفسك بعد الآن قولاً ترجع عنه. قد فعلتها من قبل، ثم غلبتك الأيام!

تنهّد المتلمس، وتغيرت ملامح وجهه إلى الشرود. وقال طرفة متعلّلاً:

- ولكني لم أمدحه... بل هجوته!

- لم تهجه في الناس. وما فعلت إلا بعد أن يئست من صلته.

ران الصمت لبرهة من الوقت. ثم سمع طرفة خاله ينشد من شعره:

أطَرَدتنـــي حـــذر الهجـــاء، ولا
والّـــلاتِ والأنصـــابِ لا تَئِـــلُ
ورهنتنـــي هنـــداً وعرضـــك في
صُـــحُفٍ تلـــوحُ كأنهـــا خِلَـــلُ
شرّ الملـــوكِ وشرّهـــا حَسَـــباً
في النـاسِ مَـن عَلِمـوا ومـن جَهلـوا
الغـــدرُ والآفـــاتُ شـــيمتُه
فـــافهمْ، فعرقـــوبٌ لـــه مَثَـــلُ
بـــئس الفحولـــةُ حـــين جُـــدَّتِهم
عَـــرْكُ الرّهـــان وبـــئسَ مـــا يَخِلـــوا

أعنـــي الخؤولـــة والعمـــومَ، فهـــم
كـــالطّبنِ لـــيس لبيتِـــه حِـــوَلُ

اتسعت عينا طرفة وهو ينظر في خاله مندهشاً، قبل أن يطلق ضحكة قوية:

- هل أصدّق سمعي؟ لقد والله هجوتَه هجاءً أشد من هجائي له.

قال المتلمس مبتسماً:

- كيف تظن بخالك؟ يستمرئ الذلّ والمهانة فيغضي على قذى وينام منهما على مثل الجمر، ثم لا ينتصف لنفسه؟ ولقد رأيتني وأنا في مثل عمرك كالحصان الجامح، لا يقر له قرار، ولا يُسْلِم ظهره لراكب!

تنهد من جديد، ثم أردف بلهجة المتأمّل:

- ولكن، من شأن الأيام أن تُلين الصعب، وتسهِّل الغليظ...

ثم التفت إلى طرفة، وأكمل مستدركاً:

- حتى يردّه أمثال ابن هند إلى غضبات شبابه.

رانَ الصمت من جديد، وذهب كل منهما في التفكير والتأمّل، حتى سأل طرفة:

- أذاك ما يفعل طول العمر بالرجل؟ ضعف بعد قوة، وخمول بعد هِمّة، وذلّ بعد عزّ؟

هزّ الملتمس رأسه يميناً وشمالاً تعبيراً عن الحيرة، وقال:

- لو كان للفتى الصلب أن يسبق الزمان فيرى حاله في شيخوخته، فكأنه ينظر إلى شخص آخر... هو وليس هو في آن. لا أدري يا ابن أخت.. فقد حار لبّي في الحياة وأطوارها. فقد يوصف الشيء الواحد بالصفة وضدها.. فحميّة الشباب شجاعة وغيرة، أو طيش ونزق، وتروّي الشيوخ حكمة وتعقّل وتدبير، أو عجز وضعف. لكأن المرء يصور الحياة على مثال نفسه، ثم يستدعي لها الحجج والتعلّات!

- فإن لم يجد ما يعلّل به نفسه؟

- فإحدى الراحتين: اليأس أو الموت!

هز طرفة رأسه وشرد في التأمل والتفكير... ثم قام يتمشى في الغرفة وبيده كأسه. وكأنه أحب أن يخرج من مزاج الحديث المؤسي عن أطوار الحياة وتقلباتها، فيعود إلى مزاج الهجاء والسخرية، فأنشد يهجو عمرو بن هند من جديد:

أنــت ابــنُ هنــدٍ فــأخْبِرْني أبــوكَ إذن
لا يُصْــلِحُ المُلْــكَ إلّا كــلُّ بَــذّاخِ

إن قلــت نصــرٌ، فنصــرٌ كــان شرّ فتــىً
قِــدْماً، وأبيضُــهم سِرْبــال طبّــاخِ

مــا في المعــالي لكــم ظِــلٌّ ولا ورقُ
وفي المخــازي لكــم أسـماخُ أسـماخِ

إن قُسِّـــمَ المجـــدُ أكـــدى في سُراتكـــمُ

أو قُسِّـــمَ اللـــؤمَ فُضّـــلتُم بأشـــياخِ

عادا إلى ما كان فيه من الضحك، وصاح طرفة:

- من يريد جائزته؟ اللعنة عليها...

زاد المتلمس:

- اللعنة عليه وعليها!

* * *

(4)

كانت متعة الملك في السخرية من خدمه وأخدانه أعظم من متعته في القنص والشواء الذي كان يقوم عليه عبد عمرو بن بشر في تلك الساعة في برّ الحيرة.

- نصيب حماراً وحشياً، ثم ندعوك لتجهز عليه وهو في آخر أنفاسه، فيعجزك يا ابن بشر؟ هل خشيت أن يرفسك في خصيتيك، فيتلف آلتك، فتصير عِنّيناً لا تقدر على شيء مما يطلبه الرجال من نسائهم؟!

كان كلامه متقطعاً بضحكه، وكان على من حوله أن يجاروه في الضحك، بل أن يزيدوا. فالملك إذا اعتل مزاجه لأحد من الأسباب كان على الجميع أن يعتلوا اعتلال من فَقَد ولده، وإذا تظرّف بطرفة سخيفة يضحك لها، كان عليهم أن يضجوا بالضحك كأن الدنيا كلها قد أقبلت عليهم ضاحكة مستبشرة. والأنكى الآن أن على عبد عمرو بن بشر كان يضحك أيضاً ولو على نفسه، وأن يطوي صدره على نار تشتعل فيه أشدّ ضراماً من النار التي يشوي عليها اللحم. ولكن الملك لم يتوقف، واستأنف مستدركاً:

- ولكن ما حاجة مثلك للنساء يا ابن بشر؟ فإن صحّ فيك قول صهرك طرفة بن العبد، فأنت مثلهن.

ثم أشار إلى خصر ابن بشر، وقد انكشف عن لحمه المُتَنَفّخ وقال:

- قد أبصر طرفة كشحك هذا حين قال:

ولا خـــيرَ فيـــه غـــير أنّ لـــه غنـــىً

وأنّ لـــه كَشْـــحاً إذا قـــام أهضـــما

- أبيت اللعن، الذي قال بك أشدّ مما قال بي.

لم يدر كيف انفلت الكلام من لسانه. فلم تكن صدمته بما غُلِب عليه من القول، بأشد من صدمة الملك وخلّانه. ورانَ الصمت على الجميع، وقد تجمّدت ملامح الملك وتصلّبت عيناه ينظر إلى ابن بشر:

- كيف قلت؟

هتف ابن بشر مضطرباً أشد الاضطراب:

- أبيتَ اللعن. إنْ كانت والله لزلّة.

قال الملك بلهجة صارمة آمرة تنضح بالوعيد:

- ماذا قال فيَّ يا ابن بشر؟

أجاب ابن بشر متوسّلاً:

- أقِلْني أبيت اللعن... إنه ابن عمّي، وصهري، وإن كنت مخالفاً له.

قال الملك:

- لا آمرك مرة أخرى حتى أضع السيف فيك. أسمعني الشعر، وطرفة آمن.

لقد أعطى الملك أمانة لطرفة على مسمع ممّن حوله. ولا مفر الآن من أن يُسمعه ابن بشر هجاء طرفة له.

* * *

بلى، أعطى الأمان... وسمعه الناس.. ولا يليق بالملك أن يرجع عنه أمام من سمعه يعطيه على الأقل!

وبدلاً من ذلك، فوجئ طرفة والمتلمس برسول الملك يطرق عليهما الباب ويدعوهما إلى قصره.

لم يُؤَخّرا هذه المرة في الدخول عليه. كما أنهما لم يتأخرا في المكوث عنده. كان واقفاً في انتظارهما، ولم يكن في المكان إلّا بعض حرسه. وتوجه من فوره إلى منضدة عليها رقعتان ملفوفتان، يحيط بكل منهما شريط من الحرير الفاخر، ويلصقها في الوسط ختم الملك الشمعي.

قدم لكل منهما رقعة وقال:

- قد تمتعنا بصحبتكما... وهذا أوان الجائزة، فانطلقا إلى عاملنا على البحرين وهَجَر، وادفعا إليه الرقعتين ففيهما الأمر بالجائزة، فاقبضاها منه.

* * *

بينما كان طرفة يصفر مرحاً وقد أوغل مع خاله في ريف الحيرة، لبث المتلمس صامتاً شارد التفكير. وفجأة توقف بدابته، نظر إليه طرفة مستطلعاً، وبعد لحظات قال المتلمس:

- أنصت يا طرفة. إنك ما زلت غلاماً حدثاً. وابن هند قد علمنا غَدْره وحقده. وكلانا قد هجاه، وكان منك الذي كان معه غير ذلك. ولستُ آمَنُ أن يكون قد أمر فينا بشرّ. فهلمّ فلنجد قارئاً ينظر في صحائفنا هذه، فإن يكن قد أمر لنا بخير مضينا، وإن كانت الأخرى لم نُهلِك أنفسنا.

قال طرفة معترضاً:

- لماذا يأمر لنا بشرّ، وقد كنا بيديه؟ فلو أراد بنا شرّاً لأنفذه بنفسه وأمام بصره.

ردّ المتلمس:

- وقل: لماذا لم يعطنا جائزتنا عنده؟ أنصت يا ابن أخت قد تكون مصيباً أو مخطئاً... فلنقطع الشكّ باليقين.

قال طرفة بعزم وإصرار:

- لا أفضّ ختم الملك، فيشك العامل في أصلها.

التقط بصر المتلمس غلاماً من نبط الحيرة يجرّ حماراً، فناداه، حتى إذا صار عنده سأله:

- هل أنت بقارئ؟

هز الغلام رأسه بنعم. فدفع إليه المتلمس بالكتاب وقد فضّ الختم، ولم يكن المتلمس قارئاً، وقال:

- هل لك أن تقرأ لي هذه؟

نظر الغلام في الكتاب، وما هي حتى دقّ على صدره وصاح:

- ثكلت صاحبَ هذا الكتاب أمُّه! أمرٌ بقتله.

هذا ما توقعه المتلمس. وقال للغلام:

- هذا يكفي... انطلق بورك فيك.

ثم التفت إلى طرفة:

- هل رأيت الآن؟ ألم أقل لك... هيّا بنا إلى حيث نأمن على أنفسنا.

سأل طرفة بغير اهتمام:

- إلى أين؟

- إلى أرض الشام حيث الغساسنة.

هزّ المتلمس زمام راحلته لينطلق، ولكنه توقف إذ رأى طرفة لا يتحرك، فصاح به:

- ما يؤخرك ثكلتك أمك.

نكس طرفة رأسه، وقال بنبرة مشوبة بالأسى:

- قد ثَكِلتُها وثَكَلتْني منذ دهر.

ثم رفع رأسه وعاد إلى لهجته الحازمة:

- أما أنت فامضِ إلى وجهتك. وأما أنا فلا أغيِّر طريقي حتى أبلغ هَجَر.

صاح المتلمس صيحة المصدوم:

- كيف قلت؟ هل عدمت عقلك. تقبل على حتفك بنفسك؟ قد علمت أن الذي في صحيفتك كالذي في صحيفتي.

لم يصدّق المتلمس سمعه حين قال طرفة:

- إن كان ليجترئ عليك، ما كان ليجترئ عليّ، ويغرّر بي.

همّ المتلمس أن يعترض من جديد، فكفّه طرفة بحركة من يده وقال:

- ولا تجادلني بعد. قضيَ الأمر.

تأمّله المتلمس، ثم قال بأسى:

- أستودعك من قتيل!

ثم هزّ زمام راحلته ومضى في وجهته. وقف طرفة يشيعه بنظرات غائمة، ثم مضى في الاتجاه الآخر.

لا، لم يكن كبرياء طرفة ليعمي بصره ويذهب بعقله فيحسب حقاً أن الملك لا يتجرأ عليه تجرّأه على خاله، وذنوبه عنده أكثر وأعظم. ولكن ما الذي بقي له من الحياة حتى يخشى خسرانه، أو يرجو نواله. أما متع الحياة فقد استوفاها وعبّها حتى الثمالة: الخمر والنساء. وأما أسباب الشقاء ونكد العيش فقد استوفى نصيبه منها. خاصم قومه وتشرّد في الآفاق، وصاحب الصعاليك وذؤبان العرب ورأى مهالكهم.

ثم صحب أميراً ثائراً من بني المنذر حتى رأى مهلكه، ثم عاد إلى قومه وأذلّ نفسه في رعي إبل أخيه، ثم في سؤال ابن عمه مالك.

ثم استعمل شعره في الطلب، ثم رضي أن ينادم أشد الخصام: عمرو ابن هند، الذي أذلّه. وفي كل ذاك لم يصب شيئاً من حاجة نفسه: أن يعيش حرّاً طليقاً على هوى نفسه ومثالها. وعليه أن يقرّ أخيراً أن الحياة كانت أقوى منه، وأنها قهرته على قالبها وهزمته وغلبته على إرادته. فهو الآن ميت حيّ! ولم يبقَ له من إرادته إلّا أن يبادر إلى موته بما ملكت يده. ومن يدري، لعلّ قومه يمنعونه من بطش عامل هجر، ويثورون أخيراً على عمرو بن هند. فإن كان ذاك فتلك كانت دائماً غايته. فلا خسران على أيٍّ من الوجهين!

* * *

الشاعر على عرش صليبه

(1)

رفع عامل هجر رأسه عن الصحيفة، ونظر إلى طرفة متفحّصاً، ثم قال:

- إن بيني وبينك خؤولةً أرعاها. فاهرب من ليلتك هذه، فإني قد أُمرتُ بقتلك.

تعجب العامل إذ رأى طرفة لا يظهر عليه شيء من الجزع أو الصدمة، كأنه كان يتوقع الأمر. وفوجئ، أكثر حين سمعه يقول:

- هل اشتدّت عليك جائزتي فأحببتَ أن أهرب؟ لا والله لا أفعل.

وبالطبع كان طرفة يعلم علم اليقين أن الأمر ليس كذلك.

صاح العامل:

- يا ابن العبد... أقلني من دمك نشدتك الله. فإنك إن هربت الآن كتمت حصولك عندي مع هذه الصحيفة. أما إن مكثت ولم تطع رأيي فلا يبقى إلا أن أرسل إليك حرسي يتقبضونك.

ولكن طرفة لم يطع، على الرغم من مناشدة أخيه معبد، حتى كاد أن ينزل على ركبتيه متوسّلاً. قال طرفة:

- أفرّ وأترك بلادي؟

صاح معبد:

- قد فعلتها من قبل. والآن حين صارت نجاتك في ترك بلادك، ذكرت تعلقك بها؟

- ما تركتها من قبل إلّا على أمل الرجوع.

- وما أمَلُك الآن من البقاء فيها؟ أعنادٌ مع نُذُرِ الموت؟

- موتٌ فيها، خير من حياةٍ هناك.

عند مطلع الصباح، جاء حرس عامل هجر والبحرين.

* * *

في مجلس الحارث بن ربيعة العبدي، عامل عمرو بن هند، ابتدر عمرو بن مرثد الكلام:

- بأيّ ذنب حبستم فتانا، وقد علمتم مكانه فينا؟

أجاب العامل:

- إنكم لتعرفون الجواب.

- وأين حق القرابة والخؤولة؟

- قضيتها حين نصحته بالفرار قبل أن يعلم الناس، فأبى.

- وإذ لم يفعل، تحبسه؟

نفخ العامل وقال:

- كأنكم لا تدرون. يا قوم، إني لم أؤمر بحبسه، وإنما أُمِرت بقتله!

- أفأنت فاعل؟

- وما بيدي؟ إنما أنا عامل الملك. وقد جنا فتاكم على نفسه، أنذرته قديماً وحذرته ونصحته، والآن وقد علم الناس بأمره، فليس لي عذر عند ابن هند، فإن لم أفعل ما أمرني به فقد جنيت على نفسي وقومي عبد القيس. بلى أنتم أخوالي، وأولئك آبائي وأعمامي، وقد قضيت حقكم بالنصيحة له قبل الفوت، والآن أفي لأهلي وقومي.

سكت القوم هنيهة، ثم تحدث خالد بن قيس:

- إن كنت تخشى عمرو بن هند على نفسك وقومك، فاعلم أنك إن قتلتَ صاحبنا فسيكون منا الذي تخشى.ولعمري إن هذا ما أراد عمرو بن هند حين كفّ يده عنه وقد كان عنده، وأوكل بك الأمر. ألا تدرك الخبيئة الخبيثة يا ابن عبد القيس؟ إن لها رائحة منتنة. فوالله ما انتدبك لهذا وهو يرجو لك ولقومك الخير، بل أراد أن يبعثها بيننا جذْعاً ويضرب بعضنا ببعض. فلعمري إن الذي بيّت لكم من الشر كالذي بيّت لنا، فنحن فيه سواء. فانظر على أي الجنبين تضطجع.

ثم قام وقام معه قومه وخرجوا. وهبط العامل على أريكته شارداً عابساً حائراً.

ولم يكن قوم طرفة بأقل حيرة منه فيما يفعلون، أو فيما يستطيعونه حقاً. لقد أوقعهم طرفة في شَرَكٍ لا يستطيعون الإفلات منه. صدق العامل، فقد استوفى حق الخؤولة حين نصحه في الفرار، فلم يفعل. فهل أراد أن يجني على نفسه أم على قومه؟ هل أراد أن

يختبرهم في أمر عظيم دونه مقاتل الرجال؟ هل أراد أن يحرجهم إذ يجعلهم على الخيار بين عار خذلانه وبين مهالك استنقاذه؟

ولكن، لو أراد أخو عبد القيس أن يقتله حقاً في أمر الملك، فلماذا يؤخره في محبسه؟ هل أراد أن يؤجل قتله حتى يختبر حال القوم أولاً من هذا الأمر الجلل. فإن بدا له أنهم يتراخون عن وعيدهم، مضى في أمر الملك، وإن رأى بوادر الثورة تورّع وارتدع. وقد أرَوْه من غضبهم وأسمعوه من وعيدهم، وراجعوه على ذلك بضع مرات. وما زال الأمر على حاله، فلا هو أقدم على قتله ولا هو أطلقه من حبسه. فماذا بعد؟

دار هذا كله بينهم وهم يتداولون في الأمر في ناديهم، حتى وقف معبد صائحاً:

- ذكرتم كل شيء، ونسيتم أمراً. أفلا ترون أنه آثر أن يؤخره حتى يحتاط منكم أولاً بشوكة قومه وجند ابن هند؟

أجاب أحدهم:

- أو أنه ما زال يراجع نفسه ليجد لها مخرجاً يرضينا ويجنبه غضبات ابن هند. يجب أن نلتمس للرجل عذراً، فهو في حال شديدة كحالنا.

صاح معبد مواجهاً القوم:

- يا قوم... يا قوم... إن هذا لأمرٌ لا تبرك عليه الإبل. وما زلتم منذ حين تراجعون الرجل ثم تراجعون أنفسكم دون أن تُقدِموا على شي، والله ما أرى أخي إلا تالفاً إن مكثنا قاعدين نلتمس

المعاذير والتعلّات والحجج. والرأي أن نبادر بالعدد والسلاح فنستنقذ أخي قبل أن يسبق السيف العذل، ويأتي العاملَ مدد من قومه ومن عمرو بن هند يحولون بيننا وبينه.

ردّ أحدهم:

- هذا على الظنّ يا ابن العبد.

- فليكن... فرأيكم كذلك. ولكن لئن صحّ ظني فهي حياة أخي على الرهان.

أجابه الرجل:

- وإن كنت مخطئاً فهي حياة الألوف منا.

قال معبد:

- هل ينبغي أن نختار بين حياة أخي وبين حياة الألوف؟

قال الرجل:

- لم نُخيَّر في هذا الأمر. فاسأل أخاك إن كنت تقدر؟

* * *

حين دخل عليه الحارس بعشائه، نقّل بصره بين الطبق وبين الحارس، وإذ أوشك الحارس على الخروج من الباب استوقفه سائلاً بلهجة تشي بالتلهف:

- نشدتك الله اصدقني... هل بلغك خبر من قومي؟

هز الحارس رأسه بالنفي وأغلق الباب وراءه. وذهب طرفة في تفكير أذهله عن طعامه.

ثم ما لبث أن سمع صوت خطوات مقبلة، تلاها صوت المفتاح وسحب المزلاج، ثم فُتح الباب.

كان القادم عامل هجر نفسه:

أغلق الباب وراءه، وقام طرفة له، وتبادلا نظرة طويلة عميقة، قبل أن يتحدث العامل:

- أنصت يا طرفة، فإني لن أطيل. منذ بدأ هذا الأمر وأنا في همٍّ وتفكير، لا يكاد يغمض لي جفن، ولا أرتاح على أي الجنبين. ولست مخيَّراً فيك بين أمر هو خير، وأمر هو شر، بل بين أمرين كلاهما شرّ ومُرّ. على أني هديت أخيراً إلى أمر هو أهون عليّ، أتكرّم به عن قتلك بيدي، وأجنب قومي انتقام عمرو بن هند، أو انتقام قومك. فكتبت لعمرو بن هند أن يعفيني من عمله ويختار له غيري، وأني لستُ بقاتلك.

* * *

كان آخر ما يريد، أن تزوره أخته الخرنق في سجنه فتراه على تلك الحال المزرية، وتخور عزيمته إذ يراها باكية. تحامل على نفسه ولم يُرها من نفسه ضعفاً، وأقبلت تحضنه وتذرف دموعاً غزيرة على كتفه وهي تشهق ببكاء حار مرير متصل... ربّت عليها وقال مواسياً:

- هوِّني عليك يا أختاه ولا تضعفيني. لا بأس على أخيك. فكلٌّ يلقى مصيره.

قالت من خلال شهيقها:

- لماذا فعلت ذلك بنفسك يا أخي، أفما كان يسعك ما وسع المتلمس؟ أين كانت فطنتك؟

قال:

- أما والله ما كانت من قلة الفطنة والحذر. ولكن...

تريث لحظة، ثم تابع:

- لا أدري... تعددت الأسباب... ولعلي أردت أن أثأر لنفسي من نفسي... أثأر لنفسي الكريمة العزيزة من نفسي التي رضيت ذل الوقوف على باب ابن هند والناس يشهدون... وقد وجدتني أنظر في تلك الصحيفة فأواسي النفس على ما تخاف وتحذر، أقول: إن كان بها حتفي فلا أعلم رجلاً قبلي قبض على منيته بيده، وهي التي تتربص بنا على ميعادها... تبصر بنا ولا نبصرها، وتعقلنا رهائن بحبل لا نراه، ترخيه على مشيئتها، وتجذبه على غفلة منا... وأن يقال بعد اليوم: قتله هجاؤه لعمرو بن هند خير من أن يقال: أحياه تذللـه له.

قالت متفجعة ساخطةً في آن:

- قتله الله... قتله الله... زوجي الذي وشى بك عند الطاغية... والله لا أقيم عنده بعد.

قال طرفة:

- لا تفعلي يا أختاه...

قالت:

- إذن أخرج بين أحياء بكر وأنْشُر شعري لتكون سبةً عليهم أبد الدهر.

حين خرجت من عنده، لم تكن قد غابت وراء الدهليز المؤدي إلى محبسه، إذ سمعته يصيح في إثرها من كوّة الباب:

- أعلمي بكراً عني... أين حميتها؟ أين نخوتها؟ أين غيرتها؟ أين حماتُها وأبطالُها؟ أين أيامها القديمة؟ كيف رضيت أن تسلم فتاها؟ أين حق الدم والنسب؟ أين حق الرجل على قبيلته؟ أين؟

كان في صرخته من التفجع والمناشدة ما لم تتوقعه منه أبداً. وقفت تنظر نحو باب المحبس وقد تضاعف حزنها وتفجعها عليه. ولم يكن هو نفسه أقل صدمة من نفسه، فارتد عن الباب بسرعة إلى داخل الغرفة ودقّ على رأسه:

- ما الذي دهاني بحق الآلهة!

* * *

(2)

لم يطل الوقت حتى وصل العامل الجديد: عبد هند بن جُرَد التغلبيّ. وكان رجلاً فاتكاً شديداً تهابه السّباع، سيفه أسبق من رأيه. وقد عرف عمرو بن هند من يختار لعمله، بدلاً من الحارث بن ربيعة العبديّ. فهذا رجل من تغلب، وبين تغلب وبكر ما علم الناس من الخصومة والمنافسة.

فدخل مقر العامل يتهادى في مشيته، محافظاً على عبوس وجهه.

وبعد أن أراه الحارث المكان ومرافقه وسلّمه المفاتيح والدفاتر، استأذن في الخروج، ومشى نحو الباب. ولكنه لم يصل إليه بقدميه. فقد عاجله العامل الجديد بطعنة في جنبه!

تلك كانت أوامر عمرو بن هند.

قبل أن يستأذن قوم طرفة في لقائه، بادر بنفسه فدعا وجوههم إليه. فردد على أسماعهم عهد الملك فيمن هم في طاعته وسلطانه: لا يعلو فريق على آخر، ولا ينقض ميثاقاً أبرمه الملك، ولا يطلب موتور دماً حتى يرجع به إلى الملك، أو عامله، فإمّا أخذه له وإمّا أجازه ونصره.

كان كلامه يرشح بالتهديد والوعيد. وكان من الطبيعي أن يأتي على ذكر طرفة فقال بلهجة صارمة:

- أما فتاكم، فليست الخصومة بيني وبينه لأعفو عنه. وأنا بعد عامل الملك، أعمل بأمره. والآن قولوا أنتم: أتراكم حين خرج

صاحبكم إلى اليمن مع عدو الملك وأخيه عمرو بن أمامة، أأنتم واطأتموه عليه؟

أجابوا:

- اللهم، لا.

قال:

- وحين قال في الملك ما قال معاتباً ولائماً ومصغِّراً بعد أن أُخذت إبل أخيه، أأنتم حرّضتموه عليه؟

قالوا:

- اللهم، لا.

قال:

- وحين شبّب بأخت الملك، أأنتم أغريتموه بذلك؟

قالوا:

- اللهم، لا.

قال:

- وحين هجا الملك ذلك الهجاء القبيح حتى جعله دون الشاة، أكان ينطق عنكم؟

قالوا:

- اللهم، لا.

قال:

- فإن كان كذلك واستقل عنكم برأيه وجرائره، فلِمَ تحتملون معه أوزاره جماعةً؟ إن الملك لم يُحملكم ذلك، ولم يأمرني بسوء فيكم. ذروني الآن أبذل لكم النصيحة بحق القرابة إذ نحن جميعاً لوائل بن ربيعة: عودوا إلى بيوتكم واسعوا في أعمالكم، واسكنوا عن أمر فتاكم، فقد جناه على نفسه فرداً، فلا يجنيه عليكم جماعةً. فقد أخرج ابن هند سلاحه وأتْبَعني بجيش يأكل المرار والحجر. وإني والله لضنين بدمائكم، فاكفوني أكفكم. وانطلقوا راشدين.

* * *

فعلت توعداته فعلها في نفوس القوم، وما زال طرفة يحتال لإرسال رسائله إليهم يحرضهم، فيهمّون ساعةً ثم يحجمون، حتى ضجر منه جُلّهم. وقال قائلهم في نادي القوم:

- الآن عرف حاجته إلى قبيلته حين صار دونها أعناق الرجال. لماذا لم يذكر حقوق قومه في حال أمنه كي يذكروا حقّه في حال خوفه؟ لم يعطنا من نفسه قبل اليوم، كي نحفظها اليوم عليه.

في هذه اللحظة سُمِع صوت الخرنق مقتحمةً على القوم، تصيح:

- وما قولك في فخره الذي قال فيكم. ألا تحفظونه كما تحفظون عليه؟

طأطأ المتحدث حرجاً، وتابعت:

- والله لقد كان أكثركم حرصاً عليكم... كان يريدكم أعزةً كراماً كما كان آباؤكم من قبل، فكان أبصركم بمثالبكم إشفاقاً

عليكم من الجور. قلت: إنه لم يحفظ حقوقكم في حال أمنه. وأي حقوق للعشيرة على فتاها أعظم من أن يكره لها الضيم ويأبى لها الذلّة؟ والله ما هجاكم، ولكنه هجا القبيح فيكم لتكونوا بلا قبيحة، وما نقم على عمرو بن هند وهجاه إلّا لتجبّره عليكم. أفلم يقل في بعض هجائه لبني المنذر:

مـــن الشـــرّ والتـــبريحِ أولادُ مَعْشَـــرٍ

كثـــيرٍ، ولا يعطـــون في حـــادثٍ بكـــرا

فما قولكم في هذا؟

رانَ الصمت على الجميع لا يحيرون جواباً وقد أخذ بهم الحرج كل مأخذ. ثم نزعت الخمار عن رأسها ونشرت شعرها، وقالت:

- لِمَ لا؟ إن المرأة لتنشر شعرها بين النساء!

وخرجت على عجل. وخلفت الحضور ينظر بعضهم إلى بعض خزياً وخجلاً.

* * *

وإذ عادت إلى بيتها، وجدت زوجها في انتظارها وقد سبقها خبر صنيعها في مجلس القوم، فبدأ يعاتبها، فأخذت تدق على صدره وتصيح:

- أنت... أنت... أنت السبب. لا والله لا أنظر إلى قاتل أخي ما حييت. ولكن قبل أن أخرج اسمع هذا الذي قال فيك:

ألا أبلغا عبدَ الضلال رسالةً

وقد يُبْلغ الأنباءَ عنك رسولُ

دَبَبْتَ بسِرّي بعدما قد علمتَه

وأنتَ بأسرارِ الكرام نَسْولُ

وكيف تضلُّ الحق والحق واضحٌ

وللحق بين الصالحين سبيلُ

فأصبحتَ فَقْعاً نابتاً بقرارةٍ

تَصَوَّحُ عنهُ والذليل ذليلُ

وأعْلَمُ علماً ليس بالظنّ أنه

إذا ذلّ مولى المرءِ فهو ذليلُ

وأنّ لسان المرءِ ما لم تكن له

حصاةٌ على عوراته لدليلُ

وإنّ امرَأً لم يَعْفُ يوماً فُكاهةً

لمن لم يُرِدْ سوءاً به لجهولُ

وكان آخر ما قالته قبل أن تخرج:

- قطع الله لسانك.

اليأس إحدى الراحتين، والموت ثانيهما. لطالما ردّد ذلك. والآن قد استسلم لليأس من قومه ومن النجاة... وفي صباح غد يلقى الراحة الثانية! فأخذ ينشد في وحشته من قصيدته الطويلة:

فـــإنْ مـــتُ فـــانعيني بـــما أنـــا أهلُـــه

وشـــقّي عـــليّ الثـــوب يـــا ابنـــةَ معبـــدِ

ولا تجعلينـــــي كـــــامرئ لـــــيس همّـــــه

كهمّـــي، ولا يغنـــي غَنـــائي ومشـــهدي

فلـــو كنـــتُ وغـــلاً في الرجـــال لضـــرّني

عـــــداوة ذي الأصـــــحاب والمتوحِـــــدِ

ولكـــن نفـــى عنـــي الرجـــالَ جـــراءتي

علـــيهم، وإقـــدامي وصـــدقي ومَحْتـــدي

أرى المـــوتَ أعـــداد النفـــوس ولا أرى

بعيـــداً غـــداً، مـــا أقـــربَ اليـــومَ مـــن غـــدِ

* * *

كان أمر الملك لعامله الجديد أن يقتله ثم يرفعه يوماً كاملاً على جذع نخلة ليراه الناس، فيكون ذلك رادعاً لهم، وكان طلب طرفة الأخير أن يُرفع على نخلته المنفردة.. تلك النخلة التي زرعها مع أبيه بنفسه، ونذرها لعابري السبيل. وظلت خاصته بعد أن ذهب سائر نخيله مع إبله في حاجات نفسه. فلم يعترض عامل هجر.

ساقوه قبيل الفجر إلى تلك النخلة، وكانوا قد أعدّوها لتلك الغاية فجردوا قدراً من ساقها من السعف والجريد، حتى مهّدوه. وإذ وقف أمامها أخذ يتأملها ويستذكر نفسه صبياً مع أبيه يزرعانها معاً. فأنشد:

فمـــن مُبْلـــغٍ أحيـــاء بكـــرِ بـــن وائِـــلٍ

بـــأنّ ابـــنَ عَبْـــدٍ راكـــبٌ غـــيرُ راجِـــلِ

عـــلى ناقـــةٍ لم يركـــبِ الفحـــلُ ظَهْرُهـــا

مُشَـــــذّبةٍ أطرافُهـــــا بالمناجِـــــلِ

وبينما أخذوا يشدّون عليه الحبال التي سيرفعونه بها ليثبتوه على النخلة بعد طعنه، أنشد من جديد:

أسْـــلَمَني قـــومي ولم يغضـــبوا

لِسَـــوأةٍ حَلّـــت بهـــم فادحِـــةْ

كـــلّ خليـــلٍ كنـــتُ خالَلْتُـــهُ

لا تَـــرَكَ الله لـــه واضـــحةْ

كلُّهُـــمْ أرْوَغُ مـــن ثعلـــبٍ

مـــا أشـــبهَ الليلـــةَ بالبارحـــةْ

لم يكن في المكان غيره وغير الحرس. فقد آثر القوم ألا يشهدوا مقتله. ولم تكن قسوة المشهد ما صرفهم عن ذلك في المقام الأول، ولكنهم لم يريدوا أن يواجهوا عجزهم وتخاذلهم عن القتيل إذ يعتلي النخلة شاهداً على تصاغرهم أمام رفعته.

بلى، شخصٌ واحد جاء راكضاً في اللحظة الأخيرة ليلقي عليه نظرة الوداع قبل موته. ولم يكن ذلك الشخص غير قينة الحان. تبادل وإياها نظرة عميقة وكانت تذرف دموعاً غزيرة. وابتزّ من نفسه ابتسامة باهتة. ثم استدارت وقفلت راجعة بسرعة.

ألصقوه إلى جذع النخلة. وتأهب صاحب الحربة الذي سيشكّه بها قبل رفعه. ولكن طرفة قال:

- أمهلوني لحظة حتى أملأ عيني من ضوء الفجر...

كانت الشمس قد برزت كاملة من خط الأفق البعيد ومدّت رداءها الذهبي على المدى الرحب. كان نسيم الفجر عليلاً، والنهار رائقاً، وغناء الطيور يتناهى إلى سمعه بأنغام شديدة العذوبة. وحدّث نفسه بأنه لم يعش في حياته يوماً بهذا الجمال. نعم، إنه يوم يليق بأن يموت الإنسان فيه! وخُيِّل إليه أنه يرى عن بُعد صبياً يشبهه حين كان في عمره، يعدّ فخه في الرمل للقنابر ويصفر كما كان يصفر.

لاحت على وجهه ابتسامة عريضة. ثم هز رأسه تجاه صاحب الحربة وقال:

- دونك الآن فافعل.

* * *

حين صار الضحى، وصلت الخرنق ومعبد إلى موضع النخلة. لم يقوَ معبد على النظر في أخيه مرفوعاً عليها وقد فارق الحياة. فوقف بعيداً مطرقاً يشهق بالبكاء. أما الخرنق فتقدمت حتى صارت على قرب، ونزلت بركبتيها على الأرض تسمو بنظرها إليه... كان رأسه منكفئاً، ولكن بدا لها أن الموت لم يقهر عزته وكبرياءه، كأنه أبى إلّا العلو في الحياة وفي الممات. وكان يعلو فوقه مباشرة سعفة نخيل بدت كأنها التاج يكلل رأسه.

ثم خاطبته:

- عشت وحيداً يا ابن أمّ. وها أنت تموت على نخلة متوحدة مثلك. فما أشبه الراكب بمطيته. كلاكما جدير بالآخر. قد ارتقيت مرتقىً عالياً يا ابن العبد.

ثم أنشدت:

فُجعنـــا بـــه لمـــا رجَوْنـــا إيابَـــه

عـــلى خـــير حـــالٍ لا وليـــداً ولا قَحْـــما

عَـــددنا لـــه ســـتاً وعشـــرين حِجّـــةً

فلّـــما توفاهـــا اســـتوى ســـيّداً ضـــخما

* * *

قبل أن ينقضي النهار، مرّ بالمكان أعرابي يردف زوجه على جواده، وكانا قد وصلا حديثاً إلى ذلك الحمى. فتوقف الأعرابي على بُعد ينظر وزوجه إلى الرجل المرفوع على نخلة. ثم سأل أحد المارة، فأجاب:

- ذاك فتى قتله شعره، أو كبرياؤه، أو قومه، أو عمرو بن هند... لا أدري.

سأل الأعرابي من جديد:

- ومن يكون؟

- طرفة بن العبد البكري.

- ذلك الشاعر؟

هز الرجل رأسه ومضى عنهما.

تعجب الأعرابي إذ وجد زوجه تترجّل، ثم تمشي نحو النخلة تنظر إلى الغلام القتيل. ما الذي يغري امرأةً بالنظر إلى الموت شاخصاً أمامها؟ وحين شعر أنها أطالت الوقوف والنظر، ناداها من خلفها:

- حسبك يا خوله! هلمّي إليّ..

* * *

تمت